شهوة الموقف المتحرك

قصص

عبد الفتاح مرسي

الطبعة الأولى

مايو ١٩٩٨

إهداء .. الى

مصطفي مدحت عبد الفتاح

و منـــار محمـــود منجـــود

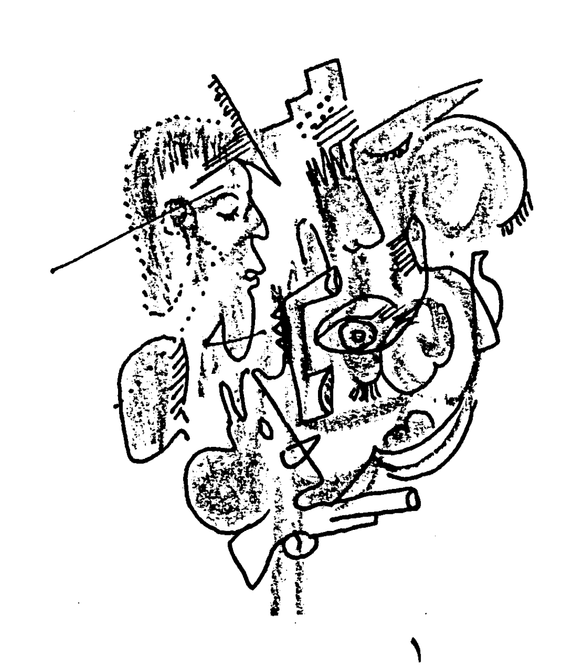
أحفادي

يؤسفني أن هذه القصص ليست للأطفال

« بابا جدو »

رقم الإيداع : ٧٤٥١ / ٩٨
الترقيم الدولي :
I.S.B.N 977-19-6158-6

AHMED M. ABD ALLAH
HIGH TOUCH COMPUTER CENTER



١

* الشاهد الحي

* وجوه تاجر التجزئة

* لغة العصر

* الباب والسجان

الشـــاهد

الحســي ..

كان لابد من تحريك ذراعي لمحاولة تفتيت القشرة عن وجـــهي . تـــأرجحت في سيري يميناً ويساراً لأشق لنفسي طريقاً في أحراش تعوق تقدمي ، تكاثفت أمامي فجأة .. أعاقتني ، أحاطتني من كل جانب ..!

.. بدوت وحيداً – ضئيلاً . قابعاً بين مكعبات عملاقة تتكدس فوقها الأضابير .. كم من السنوات مرتْ . منذ زمن بعيد ، لم أحصها ، لكني أنكب على أرقامـها ، عندما كانت حناياي مشحونة بالوجد .. وبصري له بصيرة نـــافذة ، يـــرى الأرقام المتناهية في الدقة .. وكان لي ذلك التشوق الجارف ، يدفق في أوصـــالي بالطاقة والنشاط .. وكان لي خيال جامح .. وكان ....

[الآن أرغب في العودة ، حركتي لا تسعفني للنهوض ، لا أستطيع الوقوف حتى بعد أن أنزلت عن كاهلي ذلك الحلم الثقيل .. تأملته وجدته هو أيضاً عجـــوزاً متهالكاً ، تغرق ملامحه الكهولية في أخاديد خطها الزمن في عبثه السريالي .]

هالة من الشعر الأبيض كالقطن ، الذي كانت له أغانٍ وأعياد .. أعياد تمـالكت في الذاكرة منذ زمن بعيد .. صفوف من الأكواب الشفافة تثقل بها الرف فتحطم . تكسرت وتفتت مثل أجنحتي .. ولم يعد لي سوى سلسلة ظـــهر مقوســـة في نصف دائرة معكوسة ، كقبو ، طرفها قيد في قدمي وتنتهي إلى قيد في معصمي . أفتش جيوبي فأجدها خاوية ، لا أجد إلا الرفض البارد ، ومقالات طويلة بلغـــة

قديمة ، أنشرها أمام عيون الأولاد الشرهة ، مسودات بخطوط رقعـة ونسـخ ، بعضها كتب بالكوفي مع زخرفة من عروق الشجر وأوراق الزهـور ... (لا) ، هذا لا يدل علي طول وقت الفراغ أو الدقة . حتى عندما أهتم الكاتب بـإبراز المنحنيات في الحروف وتلك السنون للخط المتأنق ، الذي لم يتضمن المضمـون المعبر عنه ... [من أول سطر حتى آخر سطر لا يضعني في الحسبان ..]

لكن يمكنكم الاستدلال على الحقيقة ، يمكنكم معرفة أني لم أقصرّ مطلقاً ، أنـا المحمصّ بشمس تشع بالحرارة التي تقتل معظم الميكروبات وتحرري من العفـن .. لذلك،تقاطرت القيمّ على نفس المحطات التي يمر عليها قطاري .. أنزلوني مـن آخر عربة وطرحت على قضبان السكة الحديد .. لتدوسني قطاراتهم البطيئـة ، وأجمع أشلاء جسدي الممزق وأعدو . لأنتظر في المحطات المـهجورة . لألـوح بمنديلي لمن لن يأتي .. يراني ولا أراه . صارت بشرتي –بفعل الانتظارات الطويلة – في لون النحاس .. ولم تكن كما يظن البعض ، من أثر الرقاد علـى رمـال الشواطئ والاسترخاء المستجم .. [كان من المستحيل أن أنـزوي في ثلاجـة وفيديو وبوتاجاز وتكييف وسيارة و .... كنت لا أتحرق على الاقتناء بقدر سعيّ الحثيث لأقرأ اسمي على جانب المنتج واسم تلك المحبوبة يتلألأ .. نفتح بها باب السوق بثمن يقلّ كثيراً عن التكلفة .. لا تندهش ..]

– من المهم أيها المواطن الاحتفاظ بالسوق بين يدينا .. ناهيك عن فتحه ..

– عرقي وجهدي ، تعبي وشقائي ..؟

– كدنا نتعلم حنكة التاجر الماهر .. من هنا كان انقلابهم علينا ، هل يمكـن لمن ليس له ساقان أن يشترك في سباق المارثون ؟]

كان لابد وأن يتمهل الأولاد قبل أن تستشري فيهم هـذه الشـراهة ، دعـوا

الدراسات جانباً فأنتم لا تقرأون واسألوا – حماصه البقال – هل يستطيع الإنفاق على أهل بيته من [الدرج] وكيف يشترى الدكان المجاور ويتوسع بعد أن يقلص رأسماله ؟ لابد وأن يبيع شيئاً حتى يرسل لزوجه وأولاده بثمن الطعام ..
عندما صار لأولادي مخالب وأنيابَ ولزوجتي ذلك الصمت المريب المتواطئ ، نادراً ما ترفع جفونها وتحدق في غضون وجهي ، تنكب طول الوقت المتاح للمعرفة في تنقية حبات الأرز من الزلط .. مسدلة الجفون على تلك النظرات المحملة بالإدانة ..!

أكاد أصيح في وجهها ، اسألي حماصة البقال ، كم مرة تضاعف الثمن ؟
[.. منذ تم عزل أحد الوزراء النابهين من منصبه لأنه تجرأ ورفع سعر كيلو الأرز قرش صاغ واحد .. منذ ذلك التاريخ لم يفقد أحد منصبه ولم يقعي التاريخ أحدهم في ركن من الأركان حتى ولو سجن لعدة شهور .. فالمسامح كريم ..]
أقول لأولادي .. آسف ، آسف جداً .. لقد تذكرت .. كان لكم هبة غضب وهياج في صالة البيت الجوانية من أجل (هدف) هز شباك الخصم .. وبعدها تم استدراج فريقنا الوطني ليهزمونا بأربع أهداف ونحرم من المشاركة في كأس العالم ..!

كانت مرة وانتهت إلى اتفاق بأن تتحولوا إلى لومي – حتى يصير لكم ما تفعلونه ، مقابل أن يواصلوا هم تحقيق أهدافهم الحيوية ، كان ذلك ضرورياً لبناء ثروات عدة مئات من المليونيرات .. لنبدو أمام العالم .. أننا بصدد مراعاة الرغبات الذاتية وتطلعات بعض الموعودين .. هل أحكي لكم حكاية قراقوش والفرخات .. أم أن الحكاية أم أباها صارت قديمة وشائخة ، كتبتها في صدر صحيفتي عدة مرات بنفس الخط الكوفي المتأنق والذي يثير سخط البعض فيحولها إلى منشور اتهام ينتظر من يشي بي إلى محاكم التفتيش التي يترأسها السيد قراقوش بنفسه ..!

تقول الحكاية [أطلق قراقوش خمس فرخات أمام عشرة أشخاص .. ربما مائة أو ألف . كان قد وعدهم جميعاً – وأقسم بالأيمان – بعصر الرخاء – بأن يكون لكل منهم فرخته .!!

من لم تلفحه الشمس سارع واختطف لنفسه واحدة أو اثنتين .. ومن كان موثقاً بحبال غليظة خرج من الباحة خالي الوفاض ، سخروا منه وضحكوا منه بملء الأشداق .. ! وقالوا : كانت أمامك الفرخات تتقافز ، كانت في متناول يديك .. لا تلم إلا نفسك . .]

عبارة تغمغم بها زوجتي كثيراً (أنت راجل خائب) . بالفعل أشعر أني رجل خائب .. فالأولاد .. أولادي لا يفهمون لغتي – كيف أخاطبهم كتابة بهذه الأوراق ذات الخطوط الكوفية – والأولاد في براءتهم خضعوا لدراسات هامة من أعتى الخبراء .. بأجهزتهم الإلكترونية المعقدة ، فملأوا أوقاتهم وتفكيرهم بكافة الألعاب المسليّة – فمن منهم مهما كان مقدار احترامه لي – يجد ثغرة من بين مشاغله ليقرأ أوراقي القديمة ؟ دفاعي الطويل ! كان لابد وأن أفيق على تلك الحقيقة .. إنهم تناسوا الحروف ، يا لسذاجتي ، كيف لم أدرك فرق السنوات بيني وبينهم .. ذلك الزمن الذي كان يسير صاعداً فصار يسير ملولباً على دقات سريعة .. كان لا بد من تقديم – دفاعي – في قالب غنائي راقص مع استخدام أورج مبرمج ذاتياً .. بدلاً من أوتار حنجرتي المشدودة ، الآن ، الآن فقط أرغب في الانصراف من عملي المعتاد .. لتحقيق الاتصال الميكانيكي ..

عندما حاولت الوقوف سمعت أشياء كثيرة تتصادم وتتحطم .. ثمة طبقة من الطين الجاف فوق بدني تتشقق أمام نظري وتتساقط .. ياه .. منذ متى وأنا جالس بين هذه المكاتب القديمة العملاقة ، همست لنفسي برغبتي في العودة ..

فإذا بصوتي يتجاوب صداه في فراغ الإدارة .. لأول وهلة اعتقدت أنهم نسوني في هذا المكان المغلق ..

منذ متى وأنا هنا ..؟ تطلعت إلى النافذة المغبرة بالتراب .. أكاد أسمع حركة المرور في الشارع .. لكن أين الزملاء ، أين السيد رئيس القطاع ، ليوقع على انصرافي .

كان لابد من الانتظار لعل الساعي – عبد السلام – يظهر ، فإن عدم وجود أحد بالإدارة لا يعني أن الساعي عبد السلام يتركني بين عهدته من الأصول الثابتة .. بعد قليل همدت الحركة خلف النافذة المغلقة .. لكن أذني تسلمت همهمة المذكرات والبيانات وكذلك حركة الأرقام داخل الآلات الحاسبة .. الآلات الحاسبة التي تقع على يميني ،كان يعلوها صرصار بني غامق .. لا يحرك سوى شواربه ، كنت لا أخشى الصراصير ولكنهم يصيبونني بالقرف .. إلا أن تجربتي بالحروف والأرقام في الحاسبة لم تكتمل .. أفضل استخدام الطرق الحسابية القديمة .. لكن بعد إلغاء القروش والشلنات والبرايز صارت الأرقام فلكية تلتهم كثير من الوقت، أين صورة المذكرة التي رفعتها إلى السيد رئيس الشركة ؟ بضرورة تطوير الحسابات داخل منظومة نفس القيم .؟ إن وجود هذه الآلة الحديثة على يميني يدل على أن التطوير قد حدث . انهم أخذوا باقتراحاتي .. لكن لماذا يعتليها هذا الصرصار البشع .

ذلك الصرصار الذي يتحرك الآن ويستدير ليسكن بداخلها في ذلك الثقب .. للحظة اعتقدت أن ذلك الثقب في الآلة الحاسبة يؤدي إلى دورة المياه ..

.. كم مضى من الوقت ؟ إن وجود أحد الموظفين في الإدارة يتطلب وجود فراش أو ساعٍ على الأقل ، أين أنت يا عبد السلام ؟ ليست من عادتك الانصراف بدون إذن وتترك الباب مفتوحاً ..أم أنك قد أغلقته بالضبة والمفتاح؟ أخيراً لمحت زر الجرس ، ضغطت عليه .. سريعاً ما سيحضر عبد السلام ملبياً الطلب وسينفض الأتربة عن الأضابير ويمسح زجاج النوافذ .

أنا الآن مهيأ لعمليات طلق الأرقام أكثر من أي وقت مضى ، ومنذ كتبت مذكرتي بتطوير الإدارة وذكرت أسماء الذين يعيقون العمل .. وكنت كريماً إذ تناسيت الزمن الذي حبسوني فيه بالمستشفى ..!

سأرسم بعض العلامات باصعبي.على الغبار المتكاثف على الزجاج.وسأكتب تاريخ المذكرة في الهواء حتى يحين موعد انصرافي المحدد .!

من هذا الذي يقف عند الباب ؟. إنه رجل في ملامح شجرة السنط،لونه أزرق فاتح وأزرق غامق وأزرق يميل إلى التركواز .. لم أميز شيئاً في وجهه المستطيل كصفيحة المسلي عشرة لبرة .. لكن للصفيحة شارب كثيف .. لماذا يصيح في وجهي ويهدر حنقاً ويتقدم في جرأة ليمسك بصدرقميصي .. أين عبد السلام ليخلصني من هذا الجلف ويلقي به خارج الإدارة ..؟!

– أهو أنت مرة أخرى ، ألم اقل لك مراراً أن الشركة صفيت . لم يعد هنا قطاع عام أو قطاع أعمال .. من أين تأتي وأنا أغلقت بإحكام كافة الأبواب،هذه المرة سأسلمك للبوليس ..

ناديت على عبد السلام الفراش مرة أخرى وانتظرت أن يأتي .. من الهـــوان أن أنادي على الساعي مرتين ..!

وكان لابد من البحث عن صورة المذكرة في درج مكتبي ، لن يعنيني أنه يحـــاول جذبي وأنا أتراجع وأتمسك بموقفي ، شجرة السنط لم يمـــهلني لأبحـــث في درج مكتبي عن المذكرة ، هي شاهدي الحي بتطوير الحسابات لوقف نزيف الســـرقات والاختلاسات .

درج المكتب كان منزوعاً .. مكانه خالٍ .. ولم أجد بي رغبة في الاستغاثة بعبـــد السلام الذي ترك عمله بدون استئذان .. فتشبثت بكل ما تقع عليه يدي . كان يترنح ويتساقط وشجرة السنط - يتعدى الأصول - ويســـحبني إلى الخـــارج .. يفتح الأبواب ويغلقها بمفاتيح الساعي عبد السلام ..!!!

أنا لا أكذب إذا قلت : هي (الدنيا) التي تضغط على أكتافي وتريد مني أن أغوص في الأرض . تحت مستوى الأرض . تدفنني بالحيا . بينما الطبيعي أن تجرجرني خلفها وتتركني أعاني من بعض الجراح . أقول (الدنيا ، حتى أنأى بنفسي عن التأويلات الخاصة) وإذا ترفقت بي ، تتركني أرتزق من بيع الأدوات الكهربائية المقلدة ، أو اللانشون والبسطرمة المصنوعة من اللحم المعامل ذريـاً ، ليبقي عشرات السنين صالحاً للبيع . وإن لم يكن صالحاً للأكل [ليفي ،كان بقالاً ، وكرياكو ، كان بقالاً .. وصارا الآن من كبار رجال الأعمال ولهم شركات دولية .. يتمتعا بخدمات وإعفاءات خاصة لإغرائهما بالحضور] وأنا – التاجر ابن التاجر .

لم يسأل في صحة سلامتي . مسئول من الدرجة الثالثة .. ومع ذلك . فقد تلبست قناع الرضا .

في المساء ، وفي معظم الأمسيات ، أصحبت أقنعتي الضاحكة والباكية ، المبالية وغير المبالية ، لأجلس على المقهى وأشارك في الزحام والضوضاء ، الخداع والنفاق .. المشاهرة ضرورية . والعلاقات العامة حيوية للتاجر الناجح – فمن الضروري من باب الدعاية . متابعة اللعبات الشعبية ، حتى يمكن العثور على موضوع للحديث .. لذلك أشاهد بحرص الدوري العام لكرة القدم – الحديث في الرياضة لا يضايق أحداً – مع إني لا ألتفت مطلقاً لأكاذيب أصحاب البذلات الكاملة ، مدخني السيجار ، و الذين يضعون على عيونهم المنتفخة

نظارات سوداء غالية الثمن . يحجبون بها نظرات الاستنكار ، ويناموون خلفها في الاجتماعات الطويلة . التي يتحدث فيها (سياسي) لا يجيد الفكاهة . ولا يتقن فن المداعبات .... !

ومن الضروري استخدام أقنعتي بمهارة . تؤكد للأعداء (العبارة الأفضل – المنافسون) قناعتي . وللأصدقاء (المنافسون أيضاً) محبتي .

وبعض الأصدقاء لفقرهم وعوزهم [الفقيرليس من الضروري أن يكون من الطبقة الكادحة . ذلك اصطلاح تخطته الأحداث . وانظروا إلى مدي ما وصلت إليه من وعي] يمكن أن يبيعوني لضابط أمن الدولة بوشايات لها تفسيرات خاصة . مقابل مبلغ تافه ، أو خدمة داخل بطاقة .

أو يبيعونني إذا ما كانت الحاجة ضرورية لطبيب في مستشفى استثماري (تناسى القَسم ، وتطلع إلى سد احتياجاته . ليحصل من جسدي على (قطعة غيار) قد يحتاجها (ثرى) لديه استعداد ليبصم شيكاً على بياض.ولا يهمه الرقم الذي يدون فيه .. !

** ** **

ومن الضروري – آخر كل أمسية – أن أعود إلى بيتي مبتهجاً – قادراً على غلق أذنيّ بالضبة والمفتاح . عند سماع الشكوى التي لا تنقطع هناك – (يا زوجتي العزيزة ، لا يمكن تدبير كل ما يعلن عنه في قنوات التلفزيون – لابد وأن نعيش حياتنا بنفس القدر الذي أتربحه – نصف القدر إذا ما رغبت في النماء والتوسع (الخبطات الكبيرة تكتنفها الخطورة ويجب أن تمارس في حرص شديد . فمن رابع المستحيلات جمع المليون الأول في أقل من مائة عام .. (ولا

تحاسبيني على من يجمعونه مضاعفاً كذا مرة في بضع سنوات أو بضع شـــهور) فأياد عديدة تمر قبلي على السلعة ، وتقبــض ، ولهــم مكــاتب فخمــة وسكرتيرات جميلات نصف داعرات ، لا يتقيدن كثيراً بتقاليد وعادات الطبقـة الوسطى . يرحبن بالضيوف الرسميين وغير الرسميون ويحققن عائداً مجزياً لصاحب العمل .. أما أنت وقد (تحجبت) وتسعين للتنقب – لا تتقنين فن إقامة حفلات الاستقبال ! كما إني لا أشجعك على ذلك !

ولن أحضر بك – حفلات الصفقات – ليس لأنك لا تصلحين لهـــابــل لأني أرفض هذا من جذوره . لذلك عندما ترنني أضع ساعديَّ في حجري ، وأنظـر إلى التمثيلية الممطوطة في التلفاز (ممطوطة من أجل عائد مجز) – وأفكر في أشياء كثيرة ، صارت ممطوطة من أجل هذا العائد ..

وأقول في نفسي – أرزاق (لا تفكرين في أني مشغول بصفقة تحقق تطلعاتك التي صنعها هذا الجهاز – وأغفر له أنه وفر لي (هذا التلفاز) شيئاً لم يكن يخطر على بال مخترعه.أنه جعلك تكفين عن محاولاتك الشيطانية – الاستهلاكية – لتجعلي مني لصاً بالقانون !

** ** **

.. انفضي من رأسك ألاعيب نساء ألف ليلةولا تفوهي بشيء ضد من صاروا فوق الرؤوس – ما عليك إلا أن تتزيني جيداً . وتتدحرجي على فراشك الوثير واستمري في مواساتي بالكلمات الفارغة التي يصفر فيها الريح .. تعرفـــين أن هوايتهم ثقب قربة الأحلام ، لتخر فوق رؤوسنا تلفزيونات ملونة وفيديوهـــات

وجنيهات ذهبية أنا أيضاً سأقوم بإعادة نثرها في عيون من يشترون بضاعتي (البائرة)، سأعطي لكل من يشتري بألف جنيه رقماً. ومن آلاف الأرقام سأجعل جائزة كبرى وثلاث جوائز صغرى. وأقابل أحد المخرجين الطامحين الذي لم يتخرج من المعهد – ويجيد فن الدعاية والإلحاح (بالفيديو كليب والرقصات المثيرة) أجرب معه حظي العاثر .. ! لعل وعسي .. !

....

ثم .. أنا لن أدقق في زيف ابتسامتك، ولن أقارن بينها وبين الأشياء الصناعية التي تتجملين بها، سأتقبلك. كما أتقبل الكلمات الرسمية. وأهز رأسي كأني أنصت بانتباه. أنا لا أصدقهم، وهم يعرفون أنهم يكذبون – هم ليسوا أغبياء – ولكن بيننا هذا الاتفاق غير المكتوب – سيبقي قائماً طالما كنت أنا ضعيفاً أو مستضعفاً، بأن يخدع كل منا الآخر – دون عتاب. انظري نحن لا نصدق أكاذيبهم. ومع ذلك كل شيء يمضي في طريقه المعتاد . . . .

ومن هنا تعلمت كيف أمارس حريتي في الخفاء. (إذ صار لي أكثر من وجه) وسأفلت من العيون التي لا تطرف، عيون المسدسات، تلك العيون التي تصيب كل المرايا بالبقع السوداء والشروخ. وتستطيع إذا ما ارتفعت إلى سرب عصافير يحلق في السماء – أن يسقط معظمه – ومن يفلت طائراً – يصاب بالفشل الكلوي !

مشكلتي يا عزيزتي. أنني لم أتقن بعد فن استخدام تلك الوجوه الحربائية – لذلك هبطت من تاجر جملة – إلى تاجر تجزئة. وأخشى أن يصل بي الحال إلى بائع جوال. رأسماله صفر ،،،،،،،،،

لغة (العصر)!

في الآونة الأخيرة . لا يدرى بالتحديد . متى . ولكن ذلك حدث بعد أن تجاوز العقد الخامس .. اعتقد في البداية ، أنها الشيخوخة المبكرة . سبباً لعدم استقباله الكامل لما يدور حوله . أشياء كثيرة صارت تغلق على ذهنه فلا يفهمها ..
في السابق . كان يمارس حياته وهو على درجة من فهم الأمور والإحاطة بهـــا . جزء يسير يأتيه فيلْم بالحالة . كأنه يقود سيارة ، مصابيحها ترســـل أمامـــه كشافاً ساطعاً . يكشف له معظم الطريق الذي يرتاده . لا يدري متى انطفـــأت تلك الكشافات . لم يعد يتبين شيئاً من الطريق الذي يسير فيـــه . وإن كـــان يعرف مقصده ! إلا أن عدم الإلمام بالتفاصيل . صار يقلقه . وقد وقر في نفسه . أنه . مقدم على حادثة.مادامت مركبته تسير في هذا الظلام الدامس .. !
في الماضي القريب . وكان في مقتبل العمر . كان بداخله شيء من اليقين،وقناعة . بأنه يسير في الاتجاه الصحيح . وبرغم أن السير في الطرق الوعرة قد يصدمه بحادثة غير متوقعة . إلا أن جانباً من الحماس ، كان يشيع بداخله نوعـــاً مـــن الطمأنينة . بأن في إمكانه مادام هو على المقود . أن يغير اتجاهـــه في اللحظـــة المناسبة.ويتجنب الخطر الشديد أو يتحمل خسارته بروح رياضية . كان ذلـــك بدافع فيض الحماس بداخله .. وهو كثيراً ما سلك دروباً . أدت به إلى أخطاء

. علمته كيف يعدل مساره . ليوازن بين أهدافه وأهدافهم . فأضافت التجربة إلى رصيده طبقة جديدة ، أثرته . وجعلته ينطق بالحكمة المكلفة ، وأمكنـــه أن يكبت الرغبات التي تسير عكس الطريق العام . والطرق المعبدة الســـهلة كانت لا تشجعه على الإسراع والانطلاق، فلا يجد في القيـــادة متعـــة المغامرة . بل أن التكرار يجعل النعاس يداهمه وقد يفقد حياته في لحظة، بفعل الملل . وعدم الشحذ . !!

وعندما يستمر في كبت الرغبات الدفينة . قد يصـــاب بـــالتوتر . ويبـــدأ في التحدي . ليشعر بذاته لكي يتخفف من الشعور بالإحباط . وإن كان – أمـــام مسؤلياته الشخصية . (قد بدأ يهادن) . ويربت على ظهر رغباته بـــأن تهـــدأ وتستقر في الأغوار السحيقة ساكنة تحت وقع صعلكة طارئة، أو بضع كؤوس ، وربما حالة عاطفية لا ضرورة لها . مبرراً أنه لم يقتل ، أو يسرق ، أو ينتقم بقسوة من أعدائه ومخالفيه. [في الواقع] ذلك يحدث في الخيال فقط . فيقلبه إلى حالة من الهدوء والانسجام الزائف، الذي له بريق الذهب . لكنه ليـــس معدنـــاً أصيلاً . أياً كان الأمر، فإن تلك الحالات الطارئة كانت تنصـــرف . أو تبقـــى لبعض الوقت . لكنها كانت تخلف لديه شعوراً بأنه يختلف عن بعض الأنـــواع التي تشاركه الحياة .. !

ولكي يبدو آدمياً ، سوياً ، كان عليه أن يكون (مثلهم) . يمشي في طاعة وينظر في احتشام ، ويفصل بين رغبة ورغبة ، لتظهر الرغبة المشروعة على السطح . فلا يفقد (احترامهم) له . كذلك ، من باب المظهر على الأقل . لا يبدو أنه يخالف الأعراف .. لكن مصابيحه التي انطفأت فجأة . أشاعت في نفسه القلق . فاعتقد أنه ربما أصيب بمرض نفسي . وكان يأمل . أن تعتاد عيناه على هذا الظلام ـ بعد قليل من الوقت ـ حتى لا يتأثر مركزه الاجتماعي . فأخذ نفسه بالشدة ، بغرض العلاج السريع – يأمل أن تعود الكشافات – لإرسال ضوئها على الطريق "

كان (شبه) شخصية عامة . نتيجة لترشيح نفسه مرتين في الانتخابات . وان لم يفز بالمقعد في المجلس التشريعي – فهو منذ دخوله هذه الانتخابات ,كان على يقين بأنه لن يفوز بالمقعد . وإلا فإن انقلاباً خطيراً كان لابد وأن يحدث حوله ، فالحزب الذي يرشحه – معارضاً – ويمثل أقلية ، ولم تزل التجربة الديمقراطية لم تتأصل بالدرجة التي تسمح لأمثاله بأن يحصلوا على أصوات الأغلبية ... ومع ذلك ،كان ينفق من ماله وجهده ويخوض الميدان . قيوداً وحواجز تكبل كل خطوة من خطواته ومع ذلك ،كان يجد لذة يشعر بها ، في أنه يؤصل التجربة . ويكشف الزيف !

وقد أدى ذلك إلى أن تتسلط عليه الأضواء ، ربما أكثر من (الفائزين) بالمقعد. الذي تنتهي مهمتهم مع نهاية الانتخابات . [ولإثبات ديمقراطيتهم] . كانوا لابد وأن يتركوا له مساحة في أجهزة الإعلام ، ليقول رأيه المعارض – ليعلو صوته – ويكيلوا له الاتهامات ،

هؤلاء الذين – يبغون – الشهرة لأسمائهم واثبات أنهم – لم يكونوا . دمى إلى آخر اللعبة . !

ومن هنا كانت قوة الكارثة في انغلاق الفهم – وإحساسه . بأنه صار معطلاً عن (التحليل والوصول إلى الجوهر) وبطيئاً في جميع التترات والأخبار ليضع رأيه . المتفرد – . ذلك الرأي الذي ينتظرونه ويسعون إلى سماعه . ليعارضوه بشدة وبعضهم ، يرقبه ويرقب حركاته وسكناته وأقواله . وستكون الطامة الكبرى . أن يُسأل ، فلا يجد في ذهنه شيئاً محدداً يجيب به . فيبدو أمامهم كالأبله .... ! ولبعض الوقت ، اعتقد أن حالته ، قد تكون ، تعبيراً إحتجاجياً للأنا السفلي وتراكماً للرغبات المكبوتة ، ظهرت بصورة . لإنغلاق الذهن ووهن في العقل ليسقط في وهدة الفراغ والسكون الرهيب – وكلما حاول تشغيل ذهنه تكاثف الصمت والفراغ حوله . بل وشعر بأنه صار قمراً صناعياً فقد قدرته على الاتصال بالأرض ، وضاع في الفراغ اللانهائي " !!

[عندما كان شاباً في ريعان الصبا،أو صبياً في ريعان الشباب . حفظ عن ظهر قلب . أغاني أم كلثوم . ليس حفظاً أعمى . ولكنه الحفظ الذي يعي تصوير المعاني الجميلة في الشعر الغنائي . وكانت سعادته تتم إذا ما تغنى بتلك الأغنيات لنفسه ، أو في دائرة أصدقاء محدودة ، وبرغم مشاغله،بعد أن مضى عهد الشباب . فقد التصقت بذهنه مقاطع من هذه الأغنيات الطويلة . كان

يستعيدها لنفسه شعراً ولحناً .. وكان صوته قد أمسى أجشاً نوعاً . ولكنه كان لا يزال يطربه وتأخذه النشوة لإتقانه لذلك الأداء بالإحساس المرهف عندما يتمكن من نقل اللحن .. وعندما اكتنفته الحالة الطارئة ، حاول أن يستعيد لحناً ، أو جزءاً من لحن ، فلم يستطع . كان اللحن بداخله يشعر به ، وكلما حاول اقتناص شئ منه – تاه وتبخر . كمن يقبض على دخان فلا تصل إلى ذهنه إلا غمغمات وطبول ليس لها معنى .. !

وحتى يكف عن هذه المحاولة في تنشيط ذهنه ، أقنع نفسه بأن (الغناء) عيب" حتى لو كان يغني لنفسه ومعظمه في (الحمام) .. وكمن فارق حبيباً بالقوة . شعر بألم الفراق ، وفراغ العاشق وحيرته ، عندما لا يهدأ في مكان . . ويلوح له الهدف ، ولكن ، لا يصل الطريق إليه " !

وعندما كان شاباً ومتحمساً للوظيفة . كان ينتقد . هؤلاء . المديرين الذين يغلقون على أنفسهم أبواب المكاتب . ولا يتعاملون إلا مع (السكرتير) ويختبئون خلف (اللمبة الحمراء) !

.. .. والآن – فهم السبب – عندما تحصن وراء مكتبه ، لا يريد أن يتشافه مع أحد ، وليكتفي بالتأشيرة الغامضة على المذكرات ، تلك التأشيرة التي تحيل المسئولية إلى جهات الاختصاص ، دون رأي محدد في المسائل المطروحة .. !

وفي حجرته الخاصة – بمنزله ، التي كان يلوذ بها من زحمة العمل . لينهي بعض الأعمال التي تحتاج إلى دراسة .. فيها يجد سلوته في المكتبة يقرأ ويستمع . إلى الاسطوانات والشرائط . أغاني قديمة وموسيقي . محاطاً بصور القدوة [نابليون .

المطرقة التي نزلت على أم رأس الرجعية في أوروبا – رفاعة الطهطاوي ، الشيخ الذي أتى من فرنسا بمصباح صغير كان كالفنار الذي اهتدت إلى شاطئه سفن فكر الشرق . وسلامة موسى – العقل المستبد الذي توزعت خلاياه على العديد من المعارف – والخديوي إسماعيل الذي استدان من أجل بناء مصر الحديثة ، فكبلوه بصندوق الدين وألقوا به في اليم . وماركس نبي المطحونين . وجمال عبد الناصر . رسول الحلم القومي في أمة عربية واحدة ، كانت تستغير وجه العالم القديم والجديد و ... و بعض وجوه أخرى من الفنانين والمبدعين .. الجميع كان يحلو له أن يطل عليهم ويطلوا عليه .!

كانت زوجته وكلما طرأ لها أن تنظم حجرته . تخفي هذه الوجوه ، وتضع في الأركان وعلى الجدران بدلاً منها إطارات تحوي زهوراً . وطيوراً ومناظر طبيعية . لبحيرات وجبال على قممها الثلج الأبيض . وقطعاً من مشغولات (الكانفاه) التي صنعتها في بهجة أيام الخطوبة والانتظار .. كان في كل مرة يعيد أصحابه ويرفع عن جدران غرفته إطاراتها ويلقي بها خلف الدولاب . لكن الزوجة لم تكن تيأس . كانت تعيد صورها الطبيعية . وترفع تلك الوجوه المتجهمة ، والباهتة ، بعمائمهم ولحيهم وملابسهم الغريبة ، وهي في قناعة بأن وجود هذه الصور على جدران غرفة المكتب من أسباب فساد زوق زوجها ...! وقد تبقى صورها على الجدران بضعة أيام دون أن يلحظ التغيير الذي طرأ . ثم ، عندما يتنبه إلى فعلتها . يرد عليها دون كلل

بأن يرفعها في رفق ويعيد تعليق أصحابه، وقد ينوه وهو على السفرة، بأن تترك له أصحابه في حالهم .... !

فترد (زوجته) وهي تتشاغل بتقديم صنف من الطعام في طبق : هذه جدران منزل، أنا مسئولة عن جماله وتنسيقه، وحجرة المكتب ليست مكتبة عامة أو جدران مدرسة يتعلم فيها التلاميذ .. !

ويقول وهو يمضغ الطعام : انه المكان الوحيد في البيت الذي أرتاح فيه فلا تنزعيهم من مكانهم . أرجوك !!

فلا ترد عليه ..

ولكن أصحابه، كان أحدهم يختفي، ويبحث عنه فلا يعثر عليه، ويسأل عنه فلا يجد إجابة شافية لدى الزوجة أو الأولاد . بل أن ابنه الكبير كان يقول له " كل هذا من أجل صورة قديمة لرفاعة الطهطاوي . إن صوره تملأ الكتب والمجلات يا أبي .. "

وبعدها تختفي صورة أخرى .. كان متيقناً بأن زوجته وراء حوادث اختفاء هؤلاء الزعماء والمبدعين، ومع ذلك – هادن – ولم يشتبك في صراع حاسم . لوقف هذا المخطط . . . .

وعندما اكتنفته حالة عدم الفهم، كان أصحابه قد اختفوا من فوق جدران حجرته . وحلت في أماكنهم لوحات للزهور والأغصان والطيور والجبال الصماء ذات القمم الثلجية !

وهو وقد أمسى معلقاً في هذا الفراغ ، فلم يعد يهتم بهذه المشكلة الجزئية . إلا أن عدم وجود أصحابه في إطاراقم . كان يحيله دائماً إلى تلك (الصديقة) التي نقلت إليه هذه الهواية .. ووجد نفسه يستعيد الماضي معها. كذلك المناقشات السياسية والاختلافات الطفيفة في وجهات النظر التي كان يمط فيها لتبقى وقتاً أطول معه تحاول إقناعه [نادية العادلي] التي لم تتحمل حالة الانكسار . فرحلت مع ذلك التاجر الذي ارتبطت به بدون مقدمات ، ليحملها بعيداً . خارج الوطن ، ومع أنها كانت تراسل – صديق له – ينوب عن كل الأصدقاء . لتستعلم أخبارهم . وكانت ترسل بأخبارها من باريس إلا أنه استشعر بأن الطير قد هاجر – هجرة نهائية – وبالفعل لم تعد أخبارهم المعتادة تعنيها . كما أن أخبارها التي وجدت أنها – ربما – كانت عادية انقطعت أيضا وتحولت ذكراها إلى تلك (الهواية) – التي نقلها من (بيتها) . عندما كانت تضع على إفريز الجدران . عديدٌ من الصور ، للزعماء والفنانين والمبدعين . يذكرونها بتيار الحضارة المتدفق ويستمعون معها إلى الموسيقى أو يقرأون معها في كتاب .."

هاهو وقد صار موظفاً كبيراً . يجلس خلف مكتبه . تعمد ، التأكيد ، بعدم إدخال أحد عليه .

فالمذكرات – مهما كانت – فإنها تحفظ سره ، أما البشر ، مهما ادعوا الغباء . والنفاق . فإنهم سيكشفون ذلك الغطاء الواهن سيكتشفون ذلك الفراغ الذي يدور فيه عقله . ثم تبدأ مقطوعات من العزف للسخرية منه .

وشخص مثله ، يحاط بعديد من الأصدقاء والمعارف ، في البيـــت والعمـــل .
وأماكن اللقاء . أن ينقطع فجأة عن التواجد مع كل من كان يقابلهم يوميـــاً .
وأن يكون عليه أن يبتكر – الأسباب والتعليلات . فإن هذا وحده كان يرهقه .
وصفحته صارت كشاشة التلفاز التالف . سوداء ، إذا حاول تشغيـــل عقلـــه
وبيضاء إذا لم يحاول التشغيل .

ومنذ أن استغرقته (الحالة) . انقطع عن لقاء الناس . واكتفـــى باصطحـــاب
صحيفة واحدة . لوقف إلحاح العادة في شراء الصحف ، وعندما قابله صديـــق
قديم بالصدفة وهو عائد ، وتطلع أن يتصفح جريدته ، استعد بأن يدعي بأن بها
موضوعاً قديماً مهماً . ذلك عندما يتبين أنها صحيفة قديمة ، مضى علـــى
صدورها عدة أسابيع ، لكن صاحبه استغرق في قراءة الصحيفة دون أن يتبـــين
أنها قديمة ، بل أنه شرع في مناقشة ما تطرحه من أحداث (هذا شخص آخر -
يقف على أبواب حالته .) ثم بدأ يكتشف أن حالات كثيرة حوله تعيش في
عالمه الفارغ الذي يسعى للشفاء منه ، وهم يستمتعون بحياتهم ، بل إن ذلك لا
يقلقهم في شئ ، وبعضهم يجد المتعة ، وهو يجلس بالساعات لا يفكـــر في شـــئ
محدد .. في البيت والعمل !

" والطبيب الذي تشجع وذهب إليه . رفض الربط بين تصرفـــات بعـــض
الناس وبين حالته ، ورفض حجته بأن الصحف إذا ما غيرت العناوين والتواريخ
يمكن أن تصدر مئات المرات على حالتها دون أن يلحظ أحد ذلـــك . ومـــن
يلحظ لن يكلف نفسه بالتعليق ، فهو قد يطوى الصحيفة ويلقي بهـــا جانبـــاً
ويعود لشرائها في اليوم الثاني ...

كما أن الطبيب النفسي - لم يتفق معه - في تجنب مشاهدة (التلفزيون) . بحجة أنه يرسخ حالة الغباء عنده - عندما يجلس أمامه ويدعي الاستغراق في المتابعة - وهو يقصد أن (يقاطع) من حوله . دون أن يكلف نفسه بتقديم الأسباب.

كما أن (الطبيب) أقنعه بأن حالته في العمل عادية تماماً . وأن معظم الكبار لا يقابلون كل من هب ودب ، وإلا فإن وقتهم المحدود قد يستهلك ولا يستفاد منه ، وأن (المذكرات) نظام عالمي . وثبت أنه الأفضل ، فالمذكرة مهما كانت عبقرية كاتبها ، فإنها تتناول موضوعاً محدداً أو عدة موضوعات مفهومة .. ولن تحاول تصحيح شئ أثناء قراءتها . ولن تجادله في التأشيرة ، وحتى إذا كانت التأشيرة القصيرة التي سيرد بها على المذكرة خطأ ، فإن ذلك سيتطلب مذكرة أخرى ، لتصحيح الخطأ ، وليس (موشحاً) من الجدل وتبادل الحجة بالحجة !

وأكد له (الطبيب النفسي) . أن المشكلة الحقيقية التي يعاني منها . هي في الواقع ، أن ليس له مشجب يعلق عليه – المعضلات ، أو ركن يلقي فيه بالهموم ليقوم بحملها آخرون .. وأن مشكلته ، أنه يريد أن يكون فعالاً . في مجال خامل ، فيجد صعوبة جمة في الاشتعال !

وأقنعه بأنه من الطبيعي أن يكون عدد كبير من المديرين . كخيال المآتة . وجودهم يهش العصافير ولكن لا يمنع الانحرافات – وأن عليه – وهو في هذه

الحالة السعيدة من الفراغ الذي يصفر فيه الريح ، أن يعيد تشكيل حياته مــن جديد ، ويستمتع بها إلى أقصى حد ، بدعوى ، أن العمر قصير .. "

** ** **

وفى أعقاب قناعاته الجديدة . فوجئت زوجته وكذلك معارفــه وأصدقاؤه . بتغييرات جذرية أصابته ـ رجل كبير يتصابى في ملابسه المزركشــة ـ ويحــول مدخراته إلى الخارج ـ ويذهب في (سياحة) إلى أوربا ـ وتكون محطته الأولى . بـــــــاريس . . .!

عندما يأتي عسكري الدور الأول . ويقف في مدخل العنبر وينادي بأعلى صوته (فؤاد عبد الصمد) .. كان فؤاد – بمجرد سماع اسمه في هذا الوقت بالذات – من العاشرة إلى الحادية عشر صباحاً – يدخل في حالة اللاوزن ومنها يتحول إلى هدفه الوحيد – أن يستبدل البيجاما بالبنطلون والقميص المعلقين في مسمار خلف باب الزنزانة الغليظ .. وفي سرعة غير مركزة .. يحاول أن يهندم من نفسه . يمشط شعره في ضربات سريعة من مشط الجيب الصغير ، ويلقى نظرة سريعة في قطعة المرآة المكسورة والمخبأة تحت (الملة) في حرص من يحوز شيئاً من الممنوعات الجسيمة – فالمرآة من الزجاج ، والزجاج حاد كالسكين وقد يتهم . إذا ما ضبطت في حملات التفتيش على الزنازين بقيادة مأمور السجن ، بأنه يحوز سلاحاً ، ولأنه (سياسي) وتهمته لم تتحدد بعد ، رغم طول التحقيقات . فإن مصيبته ستكون أكبر . ومع ذلك فقد كان في كل زنزانة من زنازين السياسيين أو غيرهم ، مرآة ، أو شطفه من مرآة ، تتم الحلاقة عليها . بالممنوعات المؤكدة وهي الأمواس . التي تقسم إلى نصفين . ويثبت نصف الموسى في قطعة من الخشب في تخانة إصبع البنصر فيتحول إلى (بشلة) لا تنقص عن موسى الحلاقة في شئ . اللهم . استخدامها أكثر من خمس مرات .. ومع ذلك لا تقل حدها عن (موسى) حلاقين ترعة المحمودية ..!

وحتى يبدو – فؤاد – أمام زوجته في حالة طيبة . وأنه في السجن (عال العال) لتكف دموعها عن التجمع في مآقيها كلما نظرت إليه ، فهو يفعل كل شئ لكي

يروض أعماقه على إظهار البهجة ، ويمهد سطحه على استقبالها .. لينقل لزوجته إحساساً بأنه لا يتعرض في الوقت الحالي على الأقل ، لأي نوع من أنواع التعذيب من المشاع بأن المعتقلين والمحبوسين السياسيين لابد وأن يتعرضوا له – ثم يمكن أن يقول لها ، بعد أن تحصل على حالة الاطمئنان ، بأن ما يعذبه بالفعل هو بعده عنها وعن الطفل الرضيع (حمو) .. وهذا كل ما في الأمر !

.. أطل السجان داخل الزنزانة – ولميل حدث في الجدران الغليظة ، باب الزنزانة برغم تخانته وصدأ مفصلاته فإنه – إذا ما ترك مفتوحاً – يتحرك وينفتح على اتساعه .. وإذا ما أغلقه (فؤاد) على نفسه في فترة النهار يكون عليه أن يحشر قطعة من الورق الغليظ – أو قطعة خشب رقيقة – بين عارضة الباب والباب . حتى يبقى مغلقاً – أثناء تناوله لطعامه أو لخلوة بنفسه – ليتجنب نظرات المساجين الفضولية ، وخاصةً الأحكام القليلة ، والقصيرة ، فمعظمهم ليس لهم عائل ولا يوجد لهم رصيد في الأمانات . فيقوم بعضهم بالتسول داخل السجن – وخاصةً – للدخان والشاي .. لذلك ، عندما أطل السجان بوجهه الضخم . تحت الباريه الصغير الزيتوني – كان الباب مفتوحاً وكان يمسك بين أصابع يده الغليظة بورقة صغيرة ، ضعف حجم طابع البريد .. بها اسم المسجون المطلوب أن يحضره للبوابة لاستقبال زيارة خاصة في حجرة النوبتجية – ومع أن قلب (فؤاد) كان يخفق بشدة وهو يستكمل ارتداء ملابسه ، ويغلق منافذ بنطلونه الأمامية في عجالة ، فقد كان يتجاوب مع ابتسامة (الشاويش) التي (فشخت) المشفتين الغليظتين . دون أن يظهر تأثيرها في عينيه . أو تعمل هذه الابتسامة على بسط العقدة من ثلاثة خطوط بين العينين .. !

وكان لا بد وأن يرحب (فؤاد) بالشاويش (عسران) – الذي كان يتعامل مع الورقة الميري الصغيرة بكل حرص/ وجدية !

يفتقدهما تماماً إذا ما تعامل مع (صنف المساجين) ويسميهم ، أحياناً (صنف الملاعين) .. وبعد دقيقتين وبضع ثوان .. قال السجان بين الجد والهزل ..

– حتى يفرجوا عنكم يا سي فؤاد . ؟

" يا سي " ذكرت فؤاد بالواجب الذي يجب أن يستقبل به ضيوفه . وخاصة . وهم يحملون له – تصريح الزيارة – فأخذ يبحث في جيوب جاكت البيجاما عن علبة السجائر الفلوريدا . .

" غير الفلوريدا – يجد صعوبة في التعامل بها كعملة سائدة في السجن "

وعاد الشاويش عسران يقول . .

لم يبق من السياسيين في السجن غيركم يا فؤاد .. !

حذفت (يا سي) وصار في حديث الشاويش عسران ، رائحة من الشدة ،كانت يد فؤاد وقد نقلت علبة السجائر من البيجاما إلى جيب القميص ، ثم نقلها من جيب القميص – حتى لا يزيد حرمان البعض إلى جيب البنطلون الجانبي . ، بعد أن تناول منها واحدة ، وهو يغمغم بكلمات سبق أن رددها كثيراً حتى بهتت معانيها في نفسه ، فالإجابة عن أسئلة الشاويشية في موضوع لا يتصرف فيه

بحرية إلا الحاكم العسكري الأعظم - وهو في نفس الوقت قاضي محكمة أمن الدولة .. والنائب العام يعمل في إحدى الوزارات التي يرأسها ... ذلك يجعل أي حديث حول الإفراج أو إصدار أحكام – وحتى في حالة صدور الأحكام يمكن الإعفاء منها – وأي رأي يقال في موضوع حبسهم – ضرباً من الأمنيات وخوضاً فيما لا طائل وراءه .. أنقذته يد قوية تشبث بها فانتشلته –

ذلك التصريح – الذي يصدر من نيابة أمن الدولة معتمداً من المحامي العـــام ..
وكان فؤاد – يسوّف . إذ أن عليه أن يضع في قدميه الجورب والحذاء قال:
– اسم من في تصريح الزيارة يا شاويش عسران .. ؟
كان يقول ذلك – ليكسب بضع ثوانٍ أخرى – يتمكن خلالها من دس قدميـــه
في الجورب ، ثم يدسهما في الحذاء – الذي يمكن أن لا يربط رباطه ..
وهو دون أن يحدس – كان يعتقد أنها زوجته التي تواظب على استخراج تصريح
كل أسبوعين لزيارته ... "
رفع السجان عسران الورقة أمام عينيه وعبس ، ذر عينيه وقطب جبينه المغضن
. لعق شفتيه بلسانه وأخذ يزوم – كان فؤاد قد فرغ من الجورب وهو يعلم أن
عسران يجهل القراءة – أرخى عسران ذراعه بالورقة بجانبه وقال :
– يظهر إنه واحد من أهلك !
من صدر فؤاد الضائق . صعدت ضحكة إحتبسها عند حلقه . ولديه الأسباب
لحبستها واضحة في ذهنه – حتى يتجنب انقلاباً يأتي من الشاويش عســـران إذا
ما تصور أن المسجون يسخر منه . وقال :
– واحد .. أم اثنين ..؟
وعندما رفع إليه (عسران) وجهه مستفسراً . تحدث معه بنفس الجدية ..
– دائما تأتي لزيارتي . زوجتي ومعها مرافق . وإذا أتت وحدها . فإن (حمو)
يكون مرافقاً ...
وقال الشاويش عسران . وقد فهم أن (فؤاد) يعرف أُمية . متنهدا :
– أيه يا سي فؤاد .. وهل أحد اهتم بنا وأرسلنا للمدارس .؟!
وحرك (السجان) الورقة أمام وجهه طلباً للهواء وهى أصغر من تدفع بشيء

منه ، لكن فؤاد أدرك أنه استنفد صبر الشاويش، وأنه إذا لم يعاجله بسيجارة أو اثنين في الحال .... ربما حدث ما لا يحمد عقباه . قال الشاويش عسران بصوت محمل بالضيق . وهو يشاهد المسجون يمسح الحذاء بقطعة من بطانية قديمة ..!

– إنت يعني رايح الديوان .. ما تخلص ..

وقبل أن يواصل (عسران) صعوده لنقطة فوران الدم . سحب فؤاد السيجارة من فوق طرف (الملة) ودفعها واضحة ممدة تحت أنفه ..

انقطع استرسال (عسران) وهبط بدرجة الغضب .. كما صعد بها .

ومال برأسه الضخم فاغرا فاه . فيما يعتقد (هو) أنها ضحكة .

وتناول السيجارة بأطراف أصابعه الغيطانية وهو يقول :

– لماذا أنت متعجل .. يا أخي ، عندما تأتي من الزيارة ، هي ، يعني، الدنيا طارت .. !

قال فؤاد . وقد خطا نحو الباب ليخرج وقد انتهى من قيافته :

– الخير كثير يا شاويش . قبل الزيارة وبعد الزيارة ..

وإذا بالشاويش – يقذف حجراً .

– أمال يا سي فؤاد .. أنتم بيصرف عليكم ملايين من الدول الأجنبية .. ؟ !

تغاضى فؤاد عن الاشتباك مع عسران . وقد ألقى حجره الذي خلف في فمه الواسع نفس (الفشخة) – وفؤاد أو غيره من السياسيين الذين معه . لا يمكنهم الرد على الإشاعات التي تتردد بين المساجين – فإن (النيابة) كانت قد وجهت هذا الاتهام ضمناً . وهي تتساءل عن مصادر تمويل التنظيم. وعندما تبين لها أن النفقات . بالساعة كل تهمتهم الحديث في سياسة البلد . بالهمس .

تساءلت . عن الهدف من الكلام ثم تدرجت بالهدف إلى أن شمل المواد المقررة من ٩٨ إلى ١٠٣ – وأضيف على الصنفين (أ ، ب) . مادة جديدة من مواد قانون الوحدة الوطنية لردع الإساءة والحض على كراهية رئيس الدولة .

.. ومع أن – القاضي أفرج عن البعض مراراً .

في حالة عدم اقتناع بالتهم ، إلا أن الجميع بقوا .. وما كان على فؤاد أمام حجارة عسران اليومية ، إلا أن يتغاضى ويبتسم في حسرة . إذ أنه اعتاد أن يغلق أذنيه وينشغل بما يدور في ذهنه .. [باب وسجان يعني أن هناك مسجوناً – باب بدون سجان يعني أن هناك قاطناً – لا باب ولا سجان . يعني أن هناك معتكفاً ..] وبعدها يتبخر الغضب الذي قد يواجهه من أمن السجن !

انتشى الشاويش عسران وهو يدس اللفافة في جيب الصدر للحلة الزيتونية التي أحالها إلى شيء آخر لا تمت للبدلة العسكرية بصلة .. كان فؤاد قد خرج من الزنزانة ووقف خلف الشاويش عسران .. الذي كان عليه أن يسير ليمشي خلفه . ومد يده وثبت ورق الكرتون . وباليد الأخرى جذب الباب لينغلق . مؤقتاً. لحين حضوره من الزيارة، وهو على ثقة بأنه لن يفقد شيئاً مهماً من داخلها . كما أنه لم يحدث – من جملة اللصوص الذين يحتويهم السجن ، أن سرقوا شيئاً من زنازين السياسيين – ولحالة الاستعجال ، جذب الباب بشدة ، الباب ارتطم بالحلق وقبل أن يمشي من أمامه انفتح .. عاد ، لم يكن يطلب معاونة من الشاويش عسران في غلق الباب ، لكن الشاويش عسران هو الذي تطوع . وقبل أن يصل إلى باب الزنزانة ، كان الشاويش قد وضع قصاصة الورق بين أسنانه ، ونحاه بذراعه في حركة خاطفة وكأنه يدفع شراً ، وتقدم هو من الباب مغمغماً " انتظر أنت يا سي فؤاد . البيبان شغلتنا،نحن نعرف كيف نتعامل معها .. "

كان فؤاد يريد أن يقول له (أن الباب لا يغلق منذ أن سكن هذه الزنزانة بعـــد أن هدأت ضجة التحقيق وتم إخراجهم من (التأديب) .. لكن السجان قد بـــدأ التعامل مع الباب ، سحبه خلفه بشدة ، ليخبط في الحلق .

وتأنى الباب قليلاً . فابتسم الشاويش عسران ابتسامة الذي يتقن عمله والذي يثق في قدراته ، إلا أن الباب وقبل أن تتسع ابتسامة الفوز ، تحرك مـــن الحلق وانفتح .. عاد السجان ينظر إلى اللسان القديم وكان قد نزع القصاصة الورقية من بين أسنانه . وعندما احتاج يديه ، قام بدس الورقة في جيب الصدر خلف السيجارة الفلوريدا . وأخذ يحرك أكرة الباب بيد ، ويميل برأسه الضخم ناظراً إلى اللسان الذي كان يخرج ويدخل .. وباليد الأخرى ، دفـــع ســـطح الباب إلى الداخل فانفتح على اتساعه فأمسك بمقدمة الباب . وقفز بخفـــة مـــع سحبه بشدة ، ليخبط في الحلق ، وليستقر اللسان اللعين في مستقره .. الباب ثبت ، وأخذ ينظر إليه في تحفز . لعله ينفتح مرة أخـــرى .. لكـــن البـــاب لم يتحرك ، تنهد ، وملأ صدره بالهواء ، وكان لا بد وأن يمضي أمـــام (فـــؤاد) لتنفيذ الزيارة .. ولزق فؤاد ابتسامة على شفتيه ، وتهيأ أن يحيي على هذه الحركة التي جعلت اللسان يعمل ، لكن الشاويش عسران ، وكأنه كان يريد أن يـــرد الصاع صاعين للباب ، فقد لطشه براحته على وجهه ، وهو يهم بالمسير ، وإذا بالباب يسخر منه ، يزيق وينفتح ، فلم يكن مغلقاً . سريعاً ما تحركت ضلفته واستمرت حركتها تسير ببطء أمام عينيه ،

وكأن الباب يتمادى في إثارة الشاويش عسران .. انتفض السجان وهجـــم على الباب .. لكن فؤاد كان قد تعلق بذراعه ، يرجوه أن يترك الباب مردوداً أو مفتوحاً ، ويتقدم معه ليلحق بالزيارة ، (الجفاف وكثرة الاستعمال ، اللسان

لن يستقر مكانه ، لن يدخل أو يخرج إلا باستخدام المفتـــاح ازعــق علــى الشاويش عبد الصمد . لديه مفتاحه .)

كان فؤاد يتحدث لكن يد الشاويش كانت تعيد الباب وتقبض عليه بكلتـــا كفيه ، وعندما تعلق بذراعه مرة أخرى ليثنيه .. دفعه السجان بكوعه دفعة قوية . دون أن يلتفت نحوه ، فلم يعد (لسي فؤاد) الآن أي اعتبار عند الســـجان المشغول بغلق هذا الباب العنيد وكسر عوائده ، حتى إذا كان منذ عدة شهور لا يغلق من تلقاء نفسه ، فقد أصر الآن على أن يغلقه كما كان يغلقـــه قديمـــاً عندما كانت المفاتيح في عهدته ...

أخذ يحركه عدة مرات ، ثم دفعه على طول ذراعه ، وجذبـــه مصـــدراً تلـــك الفرقعة والباب بلونه الرصاصي المخربش . صامد . ومتحدٍ إرادة الشاويش عسران ، في أن ينغلق بدون مفتاح ..

كبس (عسران) البيريه في رأسه ، وتفل في كفيه وتقدم نحو الباب المتجـــهم في تحد وعزيمة ، بأنه لن يغادر مكانه إلا إذا — فاز عليه — وفعلها البـــاب للمـــرة الثالثة . استكان في حلقه . كأنه يلفظ أنفاسه . وعندما مد عسران كفه إليه ليؤكد فوزه ، يسبقه في التحرك . مصدراً تزييقة ممطوطة تحت أنف عسران . فتجمع عيناه وأنفه وفمه في دائرة غضب بالوجه المستطيل .. استمرت المعركة بين الباب والسجان ، حتى تفصد العرق على جبينه (وباشت) السجائر الفرط في جيوبه . . ولتوالي الخبطات والفرقعات بدأ المساجين يهتمون ويجتمعون خلف السجان والمسجون السياسي . يشاهدون هذا الصراع في نوع مـــن الاهتمـــام الذي تثيره (المباريات) المهمة بين الثور والميتادور . أو بين مصارع وآخر .. وكل منهما يلجأ إلى ما يتقنه من حيل ..

وفؤاد يواصل حث الشاويش عسران على الانتهاء من هذا التحدي ، يريـــد

أن يبين له أثر العوامل الطبيعية التي طرأت على الباب ، لكن الشاويش عسران كان قد صم أذنيه عن سماع أي شيء ، بل أن وجود – الخلق – وإحساسه بأنهم يراقبون صراعه ، كان يزيد من تحديه للباب ..

" سجن قديم .. مبني من أيام الإنجليز . ثمانين سنة . ميت سنة ...

لكن المدعوق سينغلق يعنى سينغلق " واشتبك معه ، يتفل على اللسان ويحـــرك الضلفة عدة مرات ثم يجذبهافلا تستقر ...

والناس – المساجين الملاعين – يشاكسونه . بعضهم يشجعه . وبعضهم يقـــول "سيبه يا شاويش . الضرب في الميت حرام .. ""

والدم ضرب في رأس الشاويش عسران ، وفؤاد يتصور – زوجته وطفله الصغير . أمام باب السجن الكبير في لفحة الشمس الحارقة، أو أن أحدهم يتحرش بالسيدة التي لم تمر بهذه التجربة إلا منذ بضعة شهور ، وعســـــران ، انتفخـــت أوداجه ، وأدمى شفته السفلي من عضها ، والعرق ظهر من تحت إبطي البدلـــة فأحال أجزاء منها إلى اللون الداكن . والعصبية ركبت تصرفاته وهو لا يسمع تعليقات تجمع المساجين، وتعليق فؤاد الخافت هو الذي خرق أذنيه ، فدفعه بقوة في صدره – عندما وجده يقترب من حلبة الصراع بينه وبين الباب . بـــل ويحشر نفسه بينهما ... تصور بأن هذا – المتمرد على الحكومة ، سيتحالف مع هذا الباب الذي لا يطيعه . . الدفعة من اليد الطرشاء كـــانت قويـــة . توجهت إلى الجسد الواهن كلكمة . ومع ذلك تحمل (فؤاد) هذا الانقـــلاب . وقد اعتاد على تلك الانقلابات الأمشيريه . وعليه أن يتدثر بالصــــبر حـــتى لا تتطورالامور إلى – زنزانة في عنبر التأديب الكئيب .. فلاذ (فؤاد) بـــالجدار . بينما خطر للسجان أن يرعب المسجون بضرب هذا الباب المخالف ، في نفـــس

اللحظة التي خطر فيها بذهن فؤاد أن السجان سيقوم بتأديب هذا الباب الـــذي لا يطيع سجانه، ببوز الحذاء الميرى وجه السجان عدة ضربات مؤثرة للباب.

لكن الباب غافله وتحرك، فإذا بقدمه تصطدم بحافة الباب الغليظـــة، ويطيـــش الحذاء لتتلقى قصبة الساق قوة الانفعال (المشوطة). تساند الســـجان علـــى كتف الباب يتألم، وكف عن الحركة، وقد بدأ عليه الإعياء وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة ... انتظر (فؤاد) بضع دقائق وقال للسجان.

– هيا بنا .. ياشاويش عسران .. تأخرنا على الزيارة ..

وقال عسران في غيظ : والمحروق الذي لا يريد أن ينغلق ..

–رده بالراحة .. اقفله برفق. واتركه ..

لكن عسران. تقدم لأخر مرة. ورزع الباب في الحلـــق، في أمـــل أن يحســـم التحدي في أخر لحظه .. لكن الباب لم يغلق .. ولم يجد بداً من أن يـــترك نفســـه ليسحبه فؤاد في مقاومة ضعيفة تصدر منه وهو يسير معه يلوى عنقه الغليـــظ.

يلهث، يمسح عرق جبينه في كم البدلة المـــيرى، مرســـلا النظـــر إلى البـــاب (الموارب) في حنق ....

أنه لا يزال مفتوحاً. . .

وكلما سار بضع خطوات، عاد يلتفت نحو الباب الـــذي لم يقـــدر علـــى إغلاقه. .

وفي غضب وضيق كان يقول (يعنى لازم .. بالمفتاح) ..

خشي (فؤاد) أن يقول له (هكذا تكون الأصول ..)

فيتحداه ويعود إلى عناده من جديد ...



٢

* صفقة متبادلة
* الحروف والظلام
* خطأ طفيف
* رعب اللقاء الأول

[صفقة متبادلة]

كان اللقاء الرابع ، ولكن منذ اللقاء الثالث ، استقرت (يسرية هانم) ببدلها القصير المدملج ، بدائرة – عادل بيه – والتي ينصبها كفخ لوقوع الفريسة ، ولم تكن يسرية هانم مستعصية عليه .

تخيل أن ذراعه الخامسة ، استقرت آمنة مطمئنة بداخل مثلثها الأول .

ورأى أنه قد حصل عليها بمأذون مزيف ، وشاهدين يحملان بطاقات إثبات شخصية مزورة ، ويوقعان بالأيدي اليسرى ، أو يوقع كلُ منهما باسم الآخر .. !

ورأى أنها لن تستطيع إثبات أبوته لوليدها . ستبكي حنقاً ، وتنكفئ أمامه تحتضن ساقه ، وقد يجرها خلفه في موقف (ميلودرامي) ، وترجوه أن لا يرحل ويتركها . فلا يرق لها قلبه . ولكنه سيحملها من تحت إبطها ويرفعها إلى شفتيه ويقبلها ، ثم يطويها في صدره ، ليثبت لها أنه ليس نذلاً على طول الخط . وبينما هما في قمة الكراهية ، يذهب بها محمولة إلى (حلبة) المصارعة ، ويصارعها ، ويكسب الجولات الثلاث بالقاضية .

– عادل .. إلى أين ذهبت ؟

عاد إليها متشحاً بالبهجة وابتسامته الواثقة على شفتيه ، يتخطى بها هوة مظلمة ، وصب جام غضبه على شقيقها (يسري بيه) وكيل النائب العام . الذي يقف له سداً غليظاً ومرتفعاً في زور (السوق) ولا يدعه يمر (باللقمة) المليونيّة الطريّة التي فرش لها الأرض بالقطيفة ، وبأسعار السوق السوداء ، ورصعها بالذهب والماس ، وأرغم على أن يسلم لأحد الأقفال المسوجرة ، مبدياً عن طيب خاطر البهجة ومفاتيح السيارة المازدا . مرفقا بها المخالصة الجمركية ، مقابل ما قدمه لشركته من تسهيلات لم تكن واجبة ، أما الصف الثاني ، فقد وزع عليهم (الفورد) الشعبية .

وكأنه يوزع عليهم (البمبوني) لإنجاح العملية ، التي تترنح من ضربات الإخفاق التي يوجهها (الجلف) الذي لا يدري شيئاً عما حوله من انقلابات .

" أصيب بالهلع . والريح تنحت في صخوره ، ولم يعد يتلذذ وينتشي بتقسيمات أكورديون (السيد البلشي) ، الصادرة من الأصابع التي حرقتها لفافات الحشيش . والتي كانت تنقله مزاجياً إلى أيام زمان . عندما كان لا يزال يمتلئ بالوجد ، والأحلام المتواضعة .. وتنسيه – لبعض الوقت – ضراوة الصراع المتوحش . بعد أن يدلق في معدته نصف الزجاجة ، فيرتفع فوق القلعة ، صار الآن من الكأس الثالثة ، ينغمس حتى أنفه ، تحت أقدام (يسري بيه) ووشاح القاضي الواقف يلتف حول رقبته ، يخنقه ، ويسد فمه وأنفه ، ويطبق على صدره فيكتم أنفاسه ." حاول أن يتماسك ، ويبقى جالساً معها على المائدة ، ليوقف الهبوط والصعود ويبقى متهادياً ، في مستوى الأمسية الرائعة والمدبرة بكل دقة . في ذلك الركن خافت الأضواء ، الذي لا يُشعر فيه بخطوات الخدم وهم يسيرون على وسائدهم القطنية عندما يفاجئونهما ، ويظهرون حاملين بين أيديهم الطلبات ، يضعونها أمامهما على المائدة . وعلى شفاههم الابتسامات المزيفة .

سأدعوها لتجلس بجانبي . لماذا تجلس قبالتي . ألا يكفي أن شقيقها الملعون يقف في صدري وحلقي ، متشبثاً كالطود ، ولا يتنحى ليفسح جزءاً من الطريق . أن ضياع هذه الصفقة ، قد يذهب بنصف (الشركة) إلى هوة عميقة ..

قال لها مبتسماً في نعومة المتيم :

– يسرية هانم .. اقتربي . أم تريدين أن أنتقل أنا إلى جانبك ..

إنها تتشرنق ، وتبتعد عن ملامستي وهي لا تدرك أنها مجرد ممر إلى الصفقة المعطلة قامت ، ودارت حول المائدة في دلال مغموس في الخفر والحياء .

" إنك لا تشعرين بأنني أجدل لك حبلاً متيناً لتوثيقك ، بأعوامك الأربعين ، القدمان أولاً ، ثم الساعدان ، ثم ألقي بطرف الحبل في شراعة باب الشقـــة الواســـعة ذات الحمامين والصالتين والواجهتين والتي ينعم بالإقامة فيها – يسري الملعون – بعمارتك الموروثة . سأصنع لك خيّة بغلظ رقبتك . ولغدك ، وأشتقك أمام يسري بيه . الذي سيقف و لا يحرك ساكناً . ولكنه سيعي الدرس ، وستجحظ عيناه ، وسيخرج قلبه القاسي من فمه محترقاً يتصاعد منه الدخان ..

ذلك سيتم . إذا ما واصل الملعون بناء السدود في طريقي ، وإغراق فرصتي في قيمه القديمة ، وكراكيبه التي تخطتها الأيام .. ذلك الرجل الـــذي يعيـــش في الأبيـــض والأسود ، ذلك الذي لا يعلم ، أن معظمهم يأتون بآلات مستعملة ، تحمل في طياها الميكروبات والجراثيم ، ويعيدون بناء نفس المعامل التي هدموها هنـــاك ، بـــل قـــد يستوردون ما فسد في مخازنهم من أغذية ، بتكلفة النقل ، وبدون ثمن يذكر .

هذا الساذج لا ينظر حوله ، ولا يرسل بفكره خارج مكتبه الرطب . وإلا من أيـــن تأتي الثروات سريعاً –يا سعادة البيه – ولا إرث لهم .. وبعدها تتوالد الأنـــارب ..

أنه لا يعي بأن كل شئ (تمام) فلا أحد مات ، ولا انعقدت على الرؤوس كارثة ، مثل كوارث الكوليرا ، التي كانت تجتاح البلد – أيام الملكية – فتحد طبيعياً مـــن التزايد ، وترحم الذين يكتب لهم البقاء ، وتغلق مكاتب (أنظر حولك) و ... اللعنة على البقايا .. كيف يتواصلون ؟ عندما كانت مرحلتهم تمر بربيعها .

كان هذا (القفل) طفلاً يحبو .. من الذي لقنه هذا الإصرار على تنفيـــذ القوانـــين القديمة بحذافيرها –حذفيرة ، حذفيرة – رافضاً كل الإغراءات التي تلوح له . وقـــد أقمنا الزينات عندما ألقينا بتلك القيود في البحر ، فإذا بها تتبخر . وتعود وتمطر مع النوات المتوالية ، فوق رؤوسنا مرة أخرى . !

من ذلك الذي يسقيهم ، مع الفقر والحرمان ، هذا الاصرار على التصدي . وعشق تلك الحياة الجافة ، والنوم في ساحة القناعة العارية !

المرحلة تعج الآن بالمليونيرات والحيتان حوله يتلاطمون في سباق النـــزح والاستيلاء . وعمليات النقل لا تنتظر المتباطئين . فالوقت ملائم . والحماية تأتي من وراء البحار . ولابد وأن يرث أولادنا تلك (الميغة) ويتحصنو ! بالجاه والنفوذ . بالله عليـــك ، أفق وأنظر أمامك ، يا يسري يا غلبان ..

لماذا أنا بالذات الذي يجب عليه الوقوف خلف سد (الأصول) التي يدعوني لها هذا (الجلف) ؟ وإلى متى سيبقى واقفاً في طريقي وهو لا يريد لي الغنيمـــة ، ولا يريـــد لنفسه أن يغتنم ؟..

انه لا يزال يستمتع بالفقر الجميل الذي يجعل من (بيه) في مركزه الفضائي المرموق لا يملك السيارة الفاخرة ، ولولا ثروة يسرية هانم الموروثة عن الـــزوج العصـــامي الراحل ، وتنازلها له عن شقة لا تحصل منه على إيجارها الفعلي .. ما كان لهذا البيـــه أن يستطيع الإقامة في منتصف البلد .. بالقطع هو إنسان متبلد الإحساس بما حوله ، إنه يقبل أن يستفيد بثروة زوج شقيقته المتوفي ، وكانت العلاقة بينهما في حياته شبه معدومة ، ولا يقبل أن يغفو قليلاً فتمتلئ يديه بالمال ، وهو الذي ارتاح عندما هبط ذلك (الشيخ) من فوق كاهل شقيقته ، قبل أن تخور قواها وتتقطع أنفاســـــها .. وترك لهما أعماله التي حفظت رونقك يا هانم .. كما حفظت لشقيقها (الجلـــــف) تلك المكانة الآمنة التي يطلق منها صيحات الرفض والتهديد ضد مصالح (أسياده) اللـــــعنة .. اللعنـــــة ..

ويسرية هانم ، يتضرج وجهها وترتبك ربكة بنت العشرين .و تعتقد أنني أعشق هذا البدن المدملج ، والبشرة الحليبية . ومرافقة الهوانم ، اللاتي يستخدمن قاموساً خاصاً وأسماء إفرنجية للأشياء التي يملكنها أو التي سيملكنها ..

مخدوعة (يا مدام) ، ولكن إلى متى يمكن أن أتحمل هذه اللعبة الثقيلة ؟ سأملأ لـــك الكأس . وسأملأ وجهي بابتسامة خلابة . وأصب جام غضبي إلى الداخل ..
ومع رشفات قليلة . نثر حولها كثيراً من الكلمات ذات الأجنحة الوردية وحـــافظ على إشراقة الوجه . كممثل محترف ، أربعيني ممتلئ بالصحة والوقاحة والمال ..
يسرية هانم ، تناولت من يده الكأس . وتلامست أناملها بأنامله لعدة ثوان ، وصلته الرسالة ، فقام خفيفاً ، وانحنى أمامها كفارس نبيل يحفظ قاموس (الإتيكيـــت) وفي صوت رخيم ، طلب منها أن تترفق به وتمنحه الرقصة التي بدأت ، وتتفضل وتوقع في دفتر المأذون ، وتتفضل وتدخل معه إلى حجرة النوم الفاخرة في الفندق الفـــاخر حتى يتمم تجهيز الفيلا المناسبة (لهانم) مثلها ..
احتضنته يسرية هانم بنظرة طويلة هائمة وتخلصت من رقائق إضافية من بقايا تقـــاليد متوسطة . قد تعوقها عن ارتواء أرضها العطشى .
قامت ثقيلة ، متعثرة تخطو في مجاله المغناطيسي ، فتح لها ذراعيه واحتواها في رفـــق العاشق المتيم الذي يخشى أن تتصادم أحلامه الرقيقة فتتكسر قبل الوصول إليها ..
واندست في صدره ، كطفل يندس في صدر والده طلباً للحماية ..
وكلما تمادت الموسيقي في التحليق والدوران ، تماديا في التلاصق والتلاحم .. نفخت في ناره .. فإذا بجذوته تشتعل ..
لكن الناطور الذي يتقن حفظ المواد القانونية كما سطرت في الكتب القديمة ، كان يقف حائلاً بينه وبين صدق إحساساته بأنوثة المرأة ، واكتمال نضجها ، وهي الـــتي اقترنت بكهل ، داهمه المرض منذ أيام الزفاف الأولى ، فلم يفلح في أرضها . !
وشعرت يسرية هانم بصدق إحساساته ، فأفسحت له جزءاً ليدلف منـــه إليـــها ، واستكانت على صدره ، وفمه في أذنها يطحن كلمات قيلت في الحـــب ، يعيدهـــا مغلفة بالحنان الزائد ، والصوت الرخيم ..

لكنها بشعور الأنثى المتعطشة ، وهي صاحبة التجربة السابقة ، خيل إليها أن (عادل) المليونير المغرور ، يترنح ويتهادى مطعوناً عدة طعنات باردة ومؤلمة ، لكن ليس بخنجرها ، والدم من صدره ينزف ، فتخور إرادته ، وأنه قد صار ضعيفاً يسعل ويتساند ، ثم يسقط ببطء داخل تابوته جامعاً يديه فارغتين فوق صدره الأجوف .
وعند رأسه ستقف . وأمام عيون الفضوليين ستضع باقة الزهر الحزين . وتترك ثقوب عينيها تنزف دموع الوداع . وتبقى متماسكة ، تتلقى كلمات المواساة من (العملاء) الذين يرتدون أثواب الصداقة ، وكذلك من الأصدقاء ، وهم في ثوب المرشحين لاقتسام سريرها ، وقد يترك لها معظم ثروته وشركاته ويذهب ..
وبجانبها سيقف (يسري بيه) وكيل النائب العام في حلة الحداد السوداء ، يضفي على المشهد غلالة من الوقار ، وهو يمد يده معها ليصافح طابور الحلات الرسمية بأربطة العنق الداكنة ، وليحصلا على العزاء المخاتل .. وتستمد بوجود شقيقها بجانبها قدراً من الشجاعة والمواجهة ، لمن سيشجعهم موت العزيز على الظهور فوق مسرح الأحداث .. أقارب عادل بيه ، الذي يحول وجوده ، من ظهورهم .."
وقد تطرد الخواطر التي تلح عليها لتنشغل في حصر ثروة المرحوم الذي لم يمت بعد . من المؤكد هم خمسة ملايين أو أكثر .. فالمليون الواحد صار لا يحقق لصاحبه المشاركة الفعلية في إحدى المشاريع الهامة .
أفاقت على همساته في أذنها تلغو . وأنفاسه تلفح خدها .
- لن أكذب عليك يا يسرية هانم ، فأنت تعرفين عني الكثير . تزوجت مرة . واقترفت بعض الهفوات . ظهورك في حياتي سيكون حداً ، لما قبل ، ولما بعد ..
ضحكت يسرية هانم بحذر . فهي لا تريد أن تسخر منه . ولكنها تريده أن يعلم أنها لم توافق على اللقاء به ، إلا بعد أن عرفت عنه الكثير . .

هزت رأسها وهي تنظر إليه بعينين متألقتين ، تنمان عن الذكاء الشديد ، في حماية الأنوثة الطاغية ..

قال لها : الظروف تغير الأحوال !

فلم تحر جواباً ، واستمرت متمسكة بابتسامتها المتألقة ، ربما طاف بذهنها أنهما تقابلا في الدوران البطيء الذي لم يكن راقياً . إذ أنه صار مثقلاً بالذهب والماس ، والإعلان عن الفخامة والثراء مع ربط هذا كله بالمصالح دون حياء !

وربما أحجمت عن عمد ، تأبى مصارحته بأنه في ذاك الوقت ، لفت انتباهها بشدة ، وقد همس في خفر تتقنه (لكن وجود زوجي رجل الأعمال ، وصاحب النفوذ المؤثر في سيولة المسائل . وكان يتساند على ساعدي الواهن . وكنت أحتفظ له في حقيبتي ببعض أنواع الأدوية سريعة المفعول ، كان ذلك يحول دون انطلاقي خلف مشاعري الحقيقية ..)

وربما استشعر (عادل بيه) ما يبث مع بريق عينيها ، على نفس الموجة الخاصة لأجهزة استقباله .

هو الذي أخذ يذكرها بذلك اللقاء الذي كان .. في الحفل الكبير .. وكيف أنه كان يتحرك في مجال نظراتها المتغافلة عمداً ، تحت وطأة نفوذ الكهل . وأنه منذ ذلك الحين رغب فيها .. و ..

حاولت يسرية هانم أن تنقله من أجواء شقيقها وكيل النيابة . وتتحد مع تلميحات العاشق ، وتزيل من سياقها الأشواك المخاتلة ، وتلك الأكاذيب ، فلا يتبقى لها منه إلا هذه النعومة الرجولية التي تجذبها نحوه . وعادت تستشعر حالة الرقص والضمات التي صارت في أشد الحاجة إلى مكان مغلق بإحكام ، لتنمو نموها الطبيعي ... جسدان متلاحمان يتشبث كلُ منهما بعنفوان بالآخر ..

لكنهما وهما على درجة من الذكاء التجاري . كانا عشيقين متباعدين . بينهما حفرة تشتعل بها الرغبات السفلي ، وفؤادها من أوراق البنكنوت ، سـريعة الاشتعـال ، وتعلو فيها ألسنة اللهب ..

قال لها : احبك يا يسرية ، ولا تتهميني بالمراهقة .!

وقالت له : احبك يا عادل ، ولا تتهمني بالطيش .

وقام عادل بشنقها أمام شقيقها الذي لم يهتز .. وأدرك عادل كرجل أعمال وقتـه محسوب بالأرقام . أن وكيل النيابة لا يتطلع إلى إنقاذ رقبة شقيقته ، بل أنه كان ينتظر أن يتم هذا ، حتى يتقوى ظهره الضعيف بالأرقام الجديدة المضافة إلى رصيده .

وعاد يهمس في أذنها : لقد أضناني الشوق يا يسرية ..

وكانت إجابتها ، استكانة في صدره وتشبثاً بمنكبيه ..

كانت هي الأخرى لم تتخلص بعد من آثار الصورة التي ترى فيها نفسها في ثـوب الحداد ، الذي سيكون على آخر صيحة من خطوط (الموضة) ، وسيختلف إلى حد كبير عن ثوب الحداد السابق ، بقدر فارق العمر بين العجوز الـثري ، والأربعيـني الأنيق ، الأكثر ثراء ..

لكنها لم تستطع التخلص من أفكارها ، ورغماً عنها دخلت في حالة الانتظار المرتقب لتبدأ صفقتها ، وكان هو في نفس اللحظة ، ينتظر أن توقع له حتى يمتلـك سـريعاً فرصة إعادة الحسابات ، عندما تصل رسالتها لشقيقها ، فيحني الهامة قليلاً لتمر ريحه وتنعش موقفه . ودارا دورة أخرى على أنغام الموسيقي الحالمة ، وازدادت ضماتـه شغفاً ، بينما كانت تشق صدره وتسكن فيه كسكيـن .. !

[الحروف والظلام...]

في المدينة ، كان الليل مزوقاً ، يرتدي ثوباً مرصعاً بالترتر وخرز النجف.تنعكس على وجهه بقع الأضواء الملونة ، صار ذكرى ، منـــذ انتقالـــه إلى " المركـــز " المتجهم في تلك " المحافظة " الزراعية النائية التي بدت كعجوز ترتـــدي ثـــوب الحداد الأسود ..!

خيروه بين كسر سلسلة العادة أو ضياع الترقية ..

قالت له زوجه – العاقر – التي تبنت هواياته وكتبه ولوحاته [اذهب ولا تقلق ، عندما يعود قريبي وكيل الوزارة .. سنحصل منه على الإيماءة واجبة التنفيذ ..؟

فذهب ، بيده الحقيبة التي ملأها بـــالكتب والأوراق والراديـــو ، وغيـــارات داخلية ، وغيارات خارجية ، وجلباب للنوم ..

استقبل هناك من الموظفين والعمال ، كأحد الفاتحين الصالحين ، أمطروه بعاداتهم التي صعدت به إلى السماء وأبقته هناك معلقاً في حالة من انعدام الوزن.فجـــروا حوله الألوان الزاهية ، فامتلأت نفسه بالبهجة ، وهو يقارن بين الغانية اللعوب المبهرجة ، والفلاحة الطيبة ذات الملمس الداكن ..!

لكن بعد الأيام الثلاثة الأولى . هبط من مرتبة الضيف إلى مرتبة الزميل ..

ثم واصل الهبوط إلى أن صار غازيا.وغريباً في اقطاعيتهم . عليه أن يتجنب الســـير وحده في المدقات المظلمة ، بجانب المصارف ذات الرائحة النفاذة . وعليه أن يعيد الحسابات ، ويصنف الوجوه التي تبتسم في إســـراف بوجهـــه ، ثم تلـــوذ بالوجوم إذا ما ابتعد .. كان عليه أن يعيد دراسة التوقعات . ويعيد إلى نفســـه القلق ، ويحترس من ردود أفعال " مدير الإدارة السابق وزبانيته " الذي كان لا يزال يمسك " بالمركز " ويثبت عزوته . ولا يكف عن دق الأسافين في طريقه

نفض ذرات المكر من كومة أحاديث فراش مكتبه الهرِم .. فعثر على بصةً من الحقيقة [أعوان المدير السابق ، كثيرون – تربط بينهم المصالح.هم الذين تدخلوا في ترتيب حياته بينهم قبل حضوره .. فأسكنوه في الاستراحة النائية ، المسكونة بالجن والعفاريت !!]

ضحك بقوة ، كرد فعل من انتقامهم الساذج .. لكن ينابيع الضحكات أخرجت بعد الدفقات الصافية ، طبقة من الطين العفن ، فكف عن القهقهات الفارغة ...

فسريعاً ما ينتهي حفل ساعات العمل الذي يجد فيه سلواه ، وبه يقتل بطء حركة الساعات الثقيلة . التي تدور على كثير من الابتسامات والأحاديث الفكهة ، منها ما يصعد ومنها ما يهبط . مع فيض من الترحيبات الريفية المحفوظة كالنشيد القومي ، بعدها لابد من استهلاك فترة المساء في نادي الموظفين .. عندما تضاء اللمبات الصفراء المتناثرة في عتمة الشوارع وعلى حواف الغيطان . ضوؤها محاصر بضباب الحقول الذي يتمادى فيحاصر المباني القميئة .. الوقت يتبخر ، والرفاق ينظرون في الساعات ويتثاءبون ، تتضاءل مساحة البشاشة التي يزيحها النعاس ، تصدمه عاداتهم ، النوم بعد حلول الظلام في ساعة محددة ، والاستيقاظ مع تباشير الصبح لصلاة الفجر حاضرة .. لا محالة من أن يجر قدميه ويعود إلى المسكن المسكون بالجن والعفاريت . ولا يزال في نفسه بقايا من سخرية لذلك الانتقام الساذج !

" من الذي أشار ببناء الاستراحة على طرف المركز .. قالوا .. أنها الأملاك الأميرية ، متناثرة ومنفرطة وليس لحباتها خيط " يواصل السخرية من أبخرة الخوف التي تشع بداخله . تسري زحفاً من خلال رعدات قد يقاومها ببعض الضحكات التي تتكسر في الحلق وتخرج من ثقب الأنف .

لكن رعدة تمسك بعموده الفقري من خلف الرقبة . وقمبط باردة تتلوى كثعبان .. يحاول استعادة ما قرأه في الليلة الماضية ، أين ثنى الصفحة ؟ متى توقــف ؟ لكن ثمة هاجس غامض يشتت أفكاره ليقف حائراً كالراعي الذي فوجئ بهلـع القطيع . فلم يستطع الإمساك إلا بالشاة العجوز التي لا يتبعها أحد .. !

حاول أن ينشأ سداً ، يوقف به تداعى تلك الهواجس التي تنغــرط وتتخطـى سدوده .. تتجمع بداخله بقع من الرهبة ، تترَاح أمامها الصفحات والكلمات ، يضطرب بين الشك واليقين .. وهو يتسلم الطريق المظلم وقد عاد آخر مرافقيه متمنياً له [ليلة سعيدة] وتركه لطبقات من الظلام الكثيف.مع كثير من الثقـة الزائفة .. أين القمر والنجوم ؟ هسيس الليل والزرع وأصــوات النباحـات البعيدة تنكت داخله ينابيع قديمة . تئز منها أساطير الجدود ،متقافز في مخيلتـه تشكيلة من العفاريت ، من موروثات الطفولة . بعضها قام بـتركيب أجزائهـا بنفسه .. هل كان لابد من ترخيص مسدس صغير يخفيه بجانب قلبه ؟ ! ربما بث الطمأنينة في نفسه.وهو الذي لابد وأن يقطع هذا الطريق المظلم في معظم الليالي وحده . أو يحبس في الاستراحة منذ منتصف النهار .. المصبـاح الصغـير الذي كان يلوح له من بعيد يتراقص ضوؤه كنجم باهت ..

وضعه في بؤبؤ عينيه وأخذ يدب على الأرض كان من الوعي ليدرك بأن صدى خطواته يرتد إليه ، وأن لا أحد يمشي خلفه . وأنه لايمشي أحداها أمام الأخر .. غالب رغبة بالتلفت إلى الوراء . ثم تلفت في حذر .." ما يخشاه بالفعل ليـس الظلام . كان يخشى ضيق أفق أحدهم . الذي قد يفعلها من تلقـاء نفسـه . لتقديم خدمة للمدير السابق ، يتربص له ويضربه على أم رأسه بعصاه . أو يقوم بترهيبه . ليعود من حيث أتى »

تحسس قلبه فوجده لا يزال مغلقاً على أفكار العصر . متوسداً حناياه في راحـــة المطمئن ، يتنفس بانتظام الطفل النائم طبيعياً . بدون أحلام مفزعة

فهو منذ كان طالباً بالمدرسة الثانوية . كان يعمل بهمة في بناء صوبته الزجاجية . جعل عمدها من العلوم وسقفها من نتاج الفكر الإنساني ، حمي نفســـه مـــن الأنواء والأعاصير وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة ، وكلما أصـــاب غطـــاء صوبته ثقب، سارع بدرئه وإصلاحه .. [لكل فعل .. رد فعل .. ولن يتحـــرك الظل قبل حركة الجسم] حتى بات يتلقى ما تقذفه الريح – على جسم صوبته الأملس (كفلكلور) يعينه على اللهو .. لذلك فقد عاد وابتسم وهو يســـتعيد وسيلة انتقامهم التي شحذت عنده روح التحدي ..!

الاستراحة التي أعدت ليقيم فيها وحده تتسع لعديد من العائلات وعوائلهم . واستفاضوا في وصف ألاعيب عفاريتها – لعلها تصل إليه ويرتدع ..

أزاح القمر المحاق ركاماً من السحب الخريفية . وأطل عليه من عليائه . ســـكب من لجينه فأضاء له الطريق .. أشعل سيجارة وأخذ يســـعل ، كـــان يـــدرك أن بالحقول المترامية التي يمر بينها عدداً من البشر الذين يقومون على حراســـتها . لعلهم الآن يرونه ولا يراهم ، لقد سار في هذا الطريق . أكثر من عشرين يومـــاً .. ولكنها المرة الأولى التي لا يسير فيها معه فراشه العجوز – يؤانسه بحكاياتـــه التي لا تنتهي – لظروف خاصة بغضب ابنته من زوجها ؟ ، أم أنهم طلبوا منـــه الانقطاع حتى يجبروه على المشي وحده ولقائهم بنفسه وحيداً ؟

أخيراً .. وضح مبنى الاستراحة ، مندساً بين أشجار الكافور .. عادة ما تـــترك كافة مصابيحه مضاءة . وضعها في عينيه وهو يحث الخطى ، ما كاد يقترب مـــن المبنى . حتى تنفس الصعداء . أين الخفير أبو دومة ونبوته الغليظ ؟ لعلـــه الآن يغط في النوم .. أخرج ثلة المفاتيح من جيبه يتلهى بتسليلها وهو يقطع

الحديقة التي تحيط بالمبنى يابسة ومهجورة ، فجأة ، انطفأت أنوار المبنى وساد الظلام . هل هي يد فاعل ؟ توقف في مكانه ، لم يتحرك، بقي ساكناً لا يسمع سوى تردد أنفاسه . فهو لبضع ثوان لن يرى شيئاً بعد أن وضع المصابيح في عينيه استئناساً بها – ثم لاح ، أمامه مباشرة . واحد من العفاريت . كما تخيل من قبل . له قرون كقرون الماعز الوحشي وعين واحدة في منتصف الوجه الذي يشبه وجه التيس ، بلحيته الطويلة المدلاة ، وذيل كذيل القرود .. وقف العفريت أمامه يسد عليه الطريق ، لم يجد مأوى يلجأ إليه سوى قلبه ، وجده ساكناً ..... . خشي أن يكون قد توقف من الرعب ، هزه ، وضعه على أذنه .. مازال وجيبه المعتاد مسموعاً . !

طال وقوف العفريت أمامه . العفريت لم يحاول إخافته . كان على العفريت أن يخرج له لسانه الأحمر أو يضع يديه خلف أذنيه ويحرك أصابعه مع إصدار أصوات رعدية مع بث الشرر المؤثر من عينيه ..

لكن العفريت لم يفعل إلا الوقوف ساكناً أمامه ، كما اعتاد أن يفعل ، وبعدها ، يكون مجرد رؤيته مبعثاً للرعب في القلوب ، كان عليه أن يرتعد ويطلق ساقيه للريح عند رؤية العفريت ، أو يصرخ منادياً الخفير أبو دومة في هلع والتياع .

إلا أنه لم يفعل ذلك ، العفريت قلق ، والرجل قد تحصن خلف معارفه وخبراته ، فهو لم يخبر بأن عفريتاً قام بإلتهام إنسان . أو حتى خمش وجهه بأظافره ، قد تفعل ذلك قطة شرسة ، أو كلب مسعور – العفريت اقترب من الرجل خطوة وقال في نفسه لعله لم يرني ، كان على (الرجل) أن يتفجر بداخله الرعب .

ويقوم من تلقاء نفسه **بما أوكل** للعفريت ، يصرخ ويجرى ويقع ويقوم مسرعاً ليسقط مرة أخرى يؤذي نفسه وجسده .. وبعدها يستفيض في الحكي عن هول ما رآه – حتى يعمل الآخرون حسابهم للعفاريت .. ضاق العفريت بوقوفه أمام الرجل دون أن يصيبه الرعب .

فأصابت العفريت حالة من الاكتئاب التي تصيب من يفشلون في أداء عملهم الذي لا يتقنون سواه ، كان الرجل لا يزال يحبس أنفاسه ، عندما قال له العفريت " لماذا لم يُصبك الرعب مني ؟ " ابتسم الرجل لانتصاره على الخوف وقال " لأنك عفريت ولست وحشاً أو انساناً "

وصلصل بثلة المفاتيح . في وجهه مستطرداً [يمكنك أن تأتي معي إلى داخل الاستراحة ، فهي واسعة وأشغلها وحدي .] سالت الدموع من عين العفريت .

أطفأت الشرر الأحمر وقال وهو يستدير لينصرف [لا تسخر مني يا سيدي فأنا خلقت لأبث الرعب في القلوب . لا لكي ألعب دور كلب أليف أو قطة سيامية .

وغطى وجهه البشع بكلتا يديه حتى لا يرى أحد، هزيمته .. وتوارى . . .

. . . . .

في اليوم التالي ، اندهش زملاء الرجل بحضوره إلى عمله ، وتبادلوا النظرات في صمت

خطــــأ

طفيــــف..

رفض ملاحظوا الباب دخولنا الى الحفل الذى تهيأنا له، وكان رفضهـــم قاطعــاً , وبصورة استفزازية .. مستمدين شجعاتهم من جماعة الأمن أصحاب القمصـــان الزرق، وقد تحسسوا مسدساتهم، في نوع من التهديد المستتر .

اعترضوا طريقنا . وأشاحوا بأيديهم ، بأن نبتعد عن طريق الدخول . وأكتست وجوههم بتعبيرات الإستياء القانطة . وأمرنا أحدهم فى حزم بـــأن نبتعـــد الى أقصى ما يمكن ، حتى يتفرغوا للضيوف القادمين . كانوا ينظرون فى بطاقاتهم ويبتسمون لهم مرحبين . أما نحن، فيعاملوننا فى غضب، واحتقار واضح ...

ولم يكن أمامنا من حل، أنا واخوتى وابناء عمومتى . إلا أن نتراجع عدة خطوات ، فتقدم الحرس نحونا . فهبطنا الدرج الى الحديقة . فتقدم أحدهم نحونا . فغادرنا الحديقة الى الشارع .. ووقفنا هناك نعانى من حالة الإحباط والقنـــوط ونقلـــب الأمر الطارئ والذى لم يكن – ونحن فى الطريق نمتلئ بالزهو – فى الحسبان .

ورأينا أحد الحراس يقف عند باب الحديقة، وكأنه يستكثر علينا الوقـــوف فـــى الشارع .. يرفع يده ويدفع بها الهواء . يطلب منا أن نواصل التقهقر .. !

كنا نرتدى أفضل ما لدينا من ثياب ، وكنا نتعطر بماء الـــورد ، وكنـــا نحمـــل الدعوة ... بطاقة بيضاء مكتوبة بماء الذهب ... وكنا قـــد أبرزناهـــا – مثـــل الضيوف الوجهاء – ولكن ملاحظ الباب، الذى يقلـــــد اللـــوردات الإنجلـــيز . المتعجرفين، قرأها، ونظر فيها بإمعان، ثم انقلبت ســـحنته فجـــأة .. دون مراعـــاة لمشاعرنا وأحاسيسنا . وحدث ما حدث ...

اعتقدت كما اعتقد اخوتي وابناء عمومتي، وجميعهم أصحـــاب حيثيـــات.أن السبب قد يكمن في ملابسنا . ربما كانت غير ملائمة لمراسم الحفل الكبـــير،أو يكون قد علق بنا نوع من العفن ذي الرائحة النفاذة ! فـــاحت رائحتـــه مـــن الجوارب بداخل الأحذية . تفحصنا أنفسنا جيداً . وتأكد لنـــا.بـــأن جواربنـــا مغسولة ونظيفة... بل أن بعضنا يغسل قدميه بالطيب !

ربما كانت أجسادنا .. ونحن من البلاد الحارة،ولكننا نواظب علـــى الاغتســـال والاستحمام بل نفرط في ذلك ولا نصاب بالزكام ..

كانت رائحتنا نوعا ما زكية ، وكانت ملابسنا لا تختلف عـــن ملابـــس الذيـــن يدلفون من الباب الكبير ، إلى البهو المزدحم بالوجهاء ، وأنغام الموسيقى،وموائد الطعام والشراب .. ومعظمنا يستخدم العطور الحديثة،والمناديل المعطرة،والشامبو .. بإسراف . بل أن بعضنا يغالي في الاغتسال واستخدام الدهانـــات.ودعـــك البشرة بالليف والصابون – لعله يكتسب اللون الأبيض المشرب بالحمرة مثلهم . . ونظرنا إلى أحذيتنا . لعل أحدنا جاء مخترقـــاً الحواري الضيقة،عديمـــة دورات المياه .. لاختصار الطريق .. وداس على المخلفات التي يتخلص منها الأطفـــال دون حياء ...

كانت أحذيتنا نظيفة ولامعه . فمنذ قيل [أنا أنظر إلى الحذاء فـــأعرف وضعك الطبقي] وهي مقوله لها قوة انتشار [أنا أفكر إذاً أنا موجود] ومعظمنا يضـــع قدميه في حذاء.يخال لمن يراه.أنه صنع من الزجاج،أو البللور،وابن عم لنا كـــان يرصع حذاءه بأزرار من الذهب،والأحجار الكريمة . في مغالاة لاثبات الـــثراء الفاحش .

ووقعنا في حيرة البحث عن سبب رفضهم لدخولنا الحفل، ونحن نعـاني أشـد حالات الضيق. وامتلأت صدورنا بالانفعال الغاضب، ونحن نتسـاءل بـالعيون والاشارات عن معنى ذلك. كيف يحرموننا من الحفل المدهش؟ وأحد الأشقاء كان قد عزم على أن يوزع بنفسه على كافة العاملين فى خدمة هـذا الحفـل. ساعات ذهبية، صنعت خصيصاً، لتصدر أصواتا بأوقات الصلوات الخمس. ذلك ليترك ذكرى عند الوجهاء. تنتشر في انحاء العالم. ونفسياً، كنا جميعاً قد تهيأ نـا لحضور هذا الحفل، منذ بضعة اسابيع، فيه نلتقي بالشخصيات العالمية. والفنـانين الكبار الذين سيحيونه جاءوا من جميع أنحاء العالم. ماذا كان يضـيرهم إذا مـا دخلنا. كنا سندخل على أطراف أصابعنا، وكنا سنقف فى أحد الأركـان .. لا نسبب أدنى إزعاج لأحد. فنحن لا نجيد الرقص مع السيدات. ولا نرغب في الحديث مع أحد من الغرباء، حتى لا نجر إلى كلام في السياسه. فنخطئ ونغضب كبارنا .. ونحن لن نخالف التقاليد ونشرب معهم الأنخاب من الخمور. أو حتـى من الماء القراح. حتى لا يصورنا أحد. ونصاب بتجريسة بين شيوخنا الأفـاضل، عندما يشاهدوننا نرفع الأنخاب. فلن يصدق أحد أن بالكأس ماء، أو شربات، حتـى ولو أقسمنا على الماء يجمد !.. وهكذا سيكون دخولنا إلى هذا الحفل غير مكلف لهم. بأي حال من الأحوال.

كما أننا فى الغالب. لن نثير أى نوع من أنواع المتاعب. كما يحدث مع مـن يسكرون.

لقد كان ما يعذبنا حقاً .. ويجلد كرامتنا، أننا نعامل هذه المعاملة المختلفة، دون

ناهى الحضور .. ونحن نملك حرية رد الفعل – إذ لا بد وأن يكون لنا رد فعـــل
يشعر به منظمو الحفل،أي خطأ ارتكبوه ضدنا،يمنعنا من الدخول،وصدنا علـــى
الأبواب.ثم طردنا بهذه الصورة المخزية،غير اللائقة ، كما لابد وأن يكون فعلنا
مساويا لهذه الاهانة . بل يتفوق عليها – إذ لابد من أن يشمل العقـــاب ضـــد
رجال الأمن الأجلاف . وملاحظى الأبواب عديمى الذوق . وذلك الغبي الذي
عاملنا بصفاقة . واستمر في مطاردتنا حتى من الشارع،الذى لايملكـــه ..وهـــذا
الشخص اللوردى – وهو إن طلع أو نزل ، خادم،مثل الخـــدم فـــى بيوتنـــا
ومكاتبنا والذى أخذ يحملق فى البطاقه . ثم أخذ يدقق فى التاريخ ،وينظر فـــى
وجوهنا.وكأنه ينظر الى بلهاء – ذلك اللورد المزيف .

ماذا به التاريخ المدون على البطاقة،بفـــارق بضعة أيام . أو فبضع سنوات.أو
حتى ربع قرن ..هذا الوقت نملكه نحن . ويخصم من أعمارنا نحن . وليس مـــن
أعمارهم هم . إذن فـــان مسأله الوقت والتاريخ لاتهم أحداً سوانا .. !

ماذا به التاريخ الذى أخذ البواب يتفحصه بامتعاض .وهذا الحفل صورة طبق
الاصل من حفل آخر أقيم منذ بضع سنوات .أو حتى منذ نصف قرن .لافـــرق .
فالبطاقه هى البطاقه .بيضاء بماء الذهب – والحفل هو الحفـــل يجمـــع الكبـــار
والوجهاء . وهى أسماؤنا التى على البطاقة . شباباً كنا أو كهولاً فهذا أمر يخص
المدعو ..ما الذى يضيرهم اذا تأخرنا بعض الوقت " سنه .. مائه ..ألف " ...
وكان لابد أن نجتمع – كعائلة – ونرد بالفعل المناسب،على هـــذه الإهانـــة .
ونحن سوف نجتمع . ونسوى بيننا،مشاكلنا أولا،ثم نتوحد ، ويكـــون انتقامنـــا

رهيباً وسوف يحدث إجتماعنا هذا ذات يوم .. بعد شهر .. أو سنة .. أو مائة
ولكن لن ننسى ثأرنا مطلقا .. ولن نتركه يذهب بدد اً .. نعم أذكر .
أراد أحدهم .. أن يمزق بطاقه الدعوة . لكن آخر اعترض ، وانقسمنا حول
هذه المسأله ، وحدث الشقاق ، بين شيوخ كل فصيل (أحاول أن أثبت
للفريقين المتنازعين ، إن هذة المسألة ثانويه .. لكن الثارات بيننا ، كانت قد دفعت
بأسباب أخرى ، جعلت (الحرب) بين الاشقاء عنيفه وضارية . !!)
وهالنى أن أجد بعضاً من رجال الأمن الصفقاء . يتحيزون مع فريق ضد فريق
ويحصلون على أجورهم ، جنيهات ذهبية ، وهداياهم الساعات التى تطلق
مواقيت الصلوات التى لم تكن ضرورية لهم ولا أحد من أخوتي وأبناء عمومتي
يريد أن يقتنع بأن وجودهم يشق صف العائلة ، ومع ذلك لم أفقد الأمل [برغم
إصابتى برصاصة طائشة ..] في أننا يوماً سنسوي هذه المسألة .. !

. . . .

[رعب اللقاء الأول]

. . اليوم الأول في المدرسة ، في الجامعة ، في استلام العمل . في .. بالنسبة لي يكون حاسماً ومرعباً .. لكنني تسلمت عملي . وصار لي إسم ثلاثي في كشوف (المؤسسة) وصارت لي (هوية) مبصومة بنخلات الدولة الشقيقة ، عندما استقبلتني – حلـــة المقاومة الشعبية . بتواضع شديد ، يشوبه حرج وكبرياء . وأقسمت الشرائط الـــتي على الكتف . جزء منها حزبي ، وجزء للأعمال النضالية السابقة . بـــالأخوة (أن تشرب شاياً . . . عيني ! !)

فـــجاء مصري سكندري ، بالكستانات الصغيرة ، ذات الحـــزام الذهـــبي . حـــط الصينية بيننا ، وأخذ يبحث خلسة في ملابسي وعيوني وشعري المجعد ، عن ذلـــك المهندس المزعوم ، المحتفى به من وكيل الوزارة ، على الأكثر وجد بائعـــاً لملابـــس مستعملة في سوق الكانتو . لكنه قال لي بابتسامة واسعة . أضاءت وجهه الأسمـــر (مرحب يا هندزة) . شكرته فرحاً به ، نظرت (بدلة المقاومة) نحوي بافتخار ، وقال في احتفاء عائلي (عيني .. إشرب ..)

وشربت مع المدير الأقدم . الشاي . وهو يشيد بهذا الولـــد المصـــري الذكـــي ، وبأمانته. ونجاحه في اختبارات الثقة .. [تصور .. انه يطبـــخ ويقـــود الســـيارة ، والعـــجلة البخارية . ويطلق البندقية بدقة تصويب عالية . ويغسل الملابس ويكويها ، ويراجع الحسابات ، ويكتب الأشعار ، ويقرأ ما خلف سطور المقـــالات .. و .. نجح في اختبارات الثقة ..] قلت له : كيف ؟

قال : جعلته يقفز على ألف دينار تجرى على صفحاتها الخيول الجامحة ولكنه ، برغم أنه (خطية) . في الأساس جاء إلينا من أجل هذه النقود .. لم يتورع عن التعفف – نجح الولد . وصار مسئولاً عن مكتبي . ومقعدي . وخزانتي ودولابي . صار للولد ،

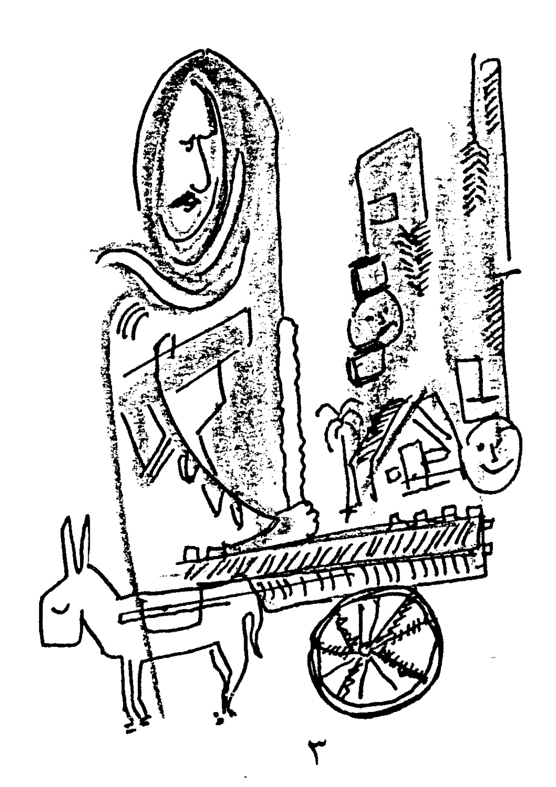
سلسلة مفاتيح ضخمة ، تضرب في ساقه . إذا ما تحرك هنا في المؤسسة ، أو في بيت هناك .. !

سررت إذ إنني أسمع ذلك عن ولد مصري . ولأني كنت مرعوباً – لقدومي إلى وطن يشوى بنار الحرب ، التي بدأت ولا يعرف أحد كيف ستنتهي . ومع ذلك فإن رعب اللقاء الأول المشحون بالآمال . تباعد . وبدأت أشعر بالرضا والهدوء النفسي .

وبعد الترحيب ، وشرب الشاي ، ابتسم المدير الأقدم . فتشققت العسكرية وانزاحت عن (خطية) أيضاً ، يحثك على الالتحام به . ما كاد الحديث يتواصل بيننا – حتى انهمرت الذكريات الأليمة ، التي تتوالى من الرواقم ذات الأرقام الكبيرة . والتي يتزّه فيها الحرس الجمهوري ، والفرقة الرابعة ، التي تنسب إلى الخليفة العظيم ..

ورأيت من خلال إنهمار الذكريات ، بورسعيد . السويس . تلوح . وتتوالد على الأرض اليابسة . يتصاعد من أنقاضها الدخان . رأيت نفسي أجري وأصيح في الشوارع – طفوا النور .. والبندقية التشيكي على الكتف خفيفة وصغيرة وفعالة وتلقي بفوارغ الرصاصات العشر جانباً . بفعل ضغط بخار الغاز عند الإطلاق ، ذلك أثناء تدريب حصة الفتوة . عندما كنت مع كل طلبة الصف . ألبس ملابس الرجال الرصاصية الموحدة . . وكان السائحون القلائل ، يصورون بكاميراتهم الصغيرة أفواجنا ، ونحن نخرج وندخل من أبواب المدارس والجامعات . ونجلس موحدين ، في قاعات الدرس . ونصطف للتدريب في المعسكرات . نستوعب ألاعيب الأعداء .. ونعي ما يقال جيداً – بأن (لا يفل الحديد سوى الحديد) فيكون لحماسنا أسره . وتكون لخطواتنا وثوقها . عندئذ كان القلق يكتنف الذين وراء البحار . والذين أمام البحار . ويتجرع مليون (حوارجي) كئوس الخمر . دون مناسبة .. فقط ، ليزيلوا

حالة التوتر التي تجئ بها وكالات الأنباء . عندما تنقل لهم حديثنا عن العمل .
وأغانينا . وانكباب شبابنا على العلم ، وارتفاع مداخننا على ضفاف النيل .
وإصرارنا على الإمساك برقاب الديناصورات ، وإلحاحنا على التحليق بأجنحتنا
المحلية في السماء . صنعناها كأجنحة النسور الجارحة ..
كان ما يخشونه ، أن يخرج المارد المحبوس من قمقمه ، أن يقنع أبناء النيل بأثواب من
قطنهم ، وغرفة من طينتهم ، وراديو صناعة محلية ، وأن نعوم على أمواج الأثير
وتلتقي القارات القديمة . لتغتسل من الأدران ، وتكتسب العافية . ويتحول
الفلاح إلى صانع . ويوقف زحف ورثة الطغاة الذين وضعوا أعلى رؤوسهم ريش
التمايز . ولم يطيروا . وصبغوا وجوههم بالزيت الأسود لإخافتنا . كعفاريت . ولم
يشعلوه ضوءاً – أو ناراً للتدفئة .
شربت كستانة أخرى من الشاي – مرحب يا هندزة – وفوجئت به يحدثني عن
أطواق لعبة الهيلاهوب . عندما تهتز الخصور التي تحاط بهذه الأطواق فتدور العجلة .
هيلاهوب – هيلاهوب . العجلة كانت أول اختراع فعال للإنسان . لينتقل بأثقاله .
فخلدت فوق الرؤوس . التي دأب بعضها على الانحناء ، في نصف دائرة . في نصف
عجلة . فلم تكتمل الحركة ، فلحق بنصفهم العلوي ، السادة أبناء الكهوف الثلجية
. والغابات الإبرية ، وركبوه ولم يحرن ، ضحكت . فتمادى المدير الأقدم في
الترحيب بي .. حتى تهيأت أن أقيم معه في (خندقه) وتمادى الولد المصري في
الترحيب بي . حتى خلت بأنه يحضني على دفع البقشيش ..
وتبدد رعب اللقاء الأول .. وقد شحنت بما كان . وأنا بكامل عتادي واقفاً انتباه ..
فيما هو كائن . [أهلاً يا هندزة – اشرب ، عيني] ....



٣

* عتريس أبو نبوت

* واحد شاي لعلي موسى

* خطوة .. خطوة



[عتريس أبو نبوت]

دلق الفضاء سواد الليل على حواف المنازل السفلي – وارتفع الظلام بطيناً علـــى الجدران ، لم يخلف إلا تلك الكوات التي يبص منها الضوء الهزيل للمصابيح البترولية واللمبات الكهربائية ذات الضوء الأصفر الذي يخفق هزيلاً عبر الأسلاك الرفيعـــة التي تتقاطع في سموات الحارات المتعرجة . لأرض كانت تزرع بالموز فلم يتبق منـــها إلا الاســـم ..

هـــنا بيت – أم صباح – التي تكبرني بربع قرن ، ولكني أعـــثر في ضماهـــا علـــى روحي المسروقة ، منذ كنت في العشرين حتى صرت في السابعة والعشرين ..

كذا مرة .. رأيت روحي في فم كلب من كلاب السكك التي تعبر شريط الســـكة الحديد من عزبة الحجيرات إلى أرض الموز .. وكانت أم صباح منقذتي قبل أن تتهتك بين فكيه !

ذات يوم . ولم يكن أحد في بيتنا ، قد أتذكر عيد ميلادي الســـابع والعشريـــن – أذكر أنهم لا يتذكرون أعياد ميلادي – وكنت أتذكر هذا اليوم قبل حلوله بعـــدة شهور ، ثم أحاول نسيانه ، فلا أتذكره إلا بعد عدة أيام من مروره ، عندما أزور أم صـــباح فأجدها تعاتبني على التورته التي صنعتها .. والاحتفال الذي أعدته لي ، ولم أحضره .

وكانت رؤيتي لأم صباح – تذكرني دائماً بصديق الطفولة (عابدين) !

***** *****

كـــان عابدين من نفس الموقع الطبقي . وإن كنت أنا في المنتصف ، ولكنـــه كـــان يقبع مع بنت خالته في الذيل .. كان من تلك الفئة التي لا تترك لهم الظروف أيـــة فرصة للنظر إلى أنفسهم ، أو أية فرصة لالتقاط الأنفاس . وكأنهم خلقوا من أجـــل

حمل نير الساقية والدوران به طول العمر . دائماً في حالة عدو خلف ذلك القمر الذي يتدحرج أمامهم ولا يلحقونه .. وقد يتأنى فيقتربون منه . يمدون أيديهم ليطولوه فينطلق وينطلقون خلفه .. لاهثين ..

قال لي جدي : إن سيدنا (آدم) بعد أن طرد مع ستنا (حواء) من الجنة . أرسل (سبحانه) رغيفاً ، من هذا النوع القمري – ليجرى بني آدم خلفه .

وأجاب جدي على سؤالي الطفولي : لماذا طرد أبونا آدم من الجنة ؟

قال : لأن إبليس اللعين ، وسوس له بأن يأكل من شجرة الحنطة . ومن يأكل من شجرة الحنطة ، لابد وأن يكون له – مرحاض – والجنة ليس بها –مراحيض – ، والذين في الجنة لا يأكلون سوى الفاكهة .. ولا يقضون حاجتهم . فقط يعرقون . ويتبخر العرق في ساعته . كنت صغيراً وسألت جدي : لماذا لم يخلق الله لهم(مرحاضاً) . وهو قادر على كل شئ . نكاية في إبليس اللعين .

لكن جدي قال لي أن هذا السؤال حرام .. فقلت : ولماذا لم يحرس الله إبليس وهو من خلقه ؟ قال لي جدي : هذا السؤال حرام ؟ قلت : ولماذا يجري أبونا آدم وراء الرغيف المستدير ؟ قال جدي : حتى يستمر البشر بعده في كد وشقاء ، من أجل لقمة العيش .

قلت لجدي : لماذا لم يرسل لأبينا آدم رغيفاً أفرنجياً طويلاً لكان الرغيف استقر مكانه حتى يعثر عليه أبونا آدم ، دون عناء .

قال لي جدي وهو يدفعني في ظهري لأبتعد : هذا السؤال حرام أيضاً ، وأردف: اذهب والعب ولا تبتعد عن الحارة .. ولا تلعب مع الولد الشقي عابدين !

ولما كنت غلاماً صغيراً . كنت أخشى جدي . وأخشى أبي ، وأحب أمي التي تغني وهي تطبخ ، وتغني وهي تخبز ، وتغني وهي تغسل الهدوم في الطشت . وتغني وهي تزغط البط ، وتأكل الفراخ .. وتغني وهي نائمة في السرير ..

ثم انقطع غناؤها بعد أن دفنوها في مقابر أبو النور – قال لي والدي الـــذي تـــزوج زينب أم إبراهيم الطفشان .والتي كانت تفعل كل ما كانت تفعله أمي ولا تغني . إن أمي كانت دائمة النواح ، وكانت تكلم نفسها كالمجانين . وعندما تشـــاهد أحـــداً يقترب منها تحول الكلام مع نفسها إلى أغاني وعدودات.

قـــلت لصديقي عابدين ، الذي لم أنقطع عن صحبته برغم كل التحذيرات . والذي كـــان يطيعني ويسير معي كالكلب الأليف ، ويسمع كلامي . ويوافق على أفكاري المجنونة . وأفكاري الساذجة .. وكذلك الخطيرة .. ولا يتمرد علـــيّ . أو يحـــاول مقاطعتي ولا يظهر غضبه وقمصته إلا إذا امتنعت عن إقتسام (التصبيرة) الـــتي آتي بها قـــبل الأكـــل . وبعـــده .. لنـــأكلها ونحن نلعب. – ما رأيك يا عابدين لو أننا دهنا المنازل في حارتنا بالجير الأبيض . فتصير حارتنا أجمل الحارات . ويقتـــدي بنـــا أولاد الحارات الأخرى . فتصير أرض الموز ، الأرض البيضاء ؟

هز رأسه موافقاً وقال : والله فكرة ..

لكنه بعد قليل سألني : لكن عتريس أبو نبوت شراني . وإذا ضبطنا ونحـــن نســـرق الجير من (مسمسه) ، لن يتورع في أن يشج رؤوسنا بنبوته ، ثم يحملنا ليلقي بنـــا تحت أقدام أهالينا ، ولن يتركهم إلا إذا أجهزوا علينا بضربنا أمامه .

ولكني قدحت الذهن وقلت له : إن عتريس يُحمل العربة الكارو بالرمل أو الجـــير ويـــغادر (المسمس) ما علينا إلا أن ندخله بشكل طبيعي . ونمســـك بـــالكوريك ونملأ الكيس بالجير وننصرف في هدوء . ولا من شاف ولا من دري .

هز رأسه موافقاً وقال : والله فكرة ..

تربصنا في طرف الخرابة ذات السور القصير . وترقبنا عتريس أبو نبوت وهو يُحمل عربته الكارو بالطوب والرمل ، ويجلجل الحمار الأعجف بالأجراس ، خارجاً مـــن البوابة ، ويترل عتريس ويغلق البوابة بالسقاطة ، ويمسك بمقود الحمار ويسير بجانبه

من الناحية الأخرى . انتظرنا حتى ابتعد – ورفعنا السقاطة ودخلنا المسمس متلاصقين – وعثرت على شيكارة . ولكن عابدين خطر له أن يضرب (شقلباظاً) على كومة الرمل . وصعدت أنا الآخر على تل الرمل ، وقمت بضرب شقلباظ أفضل منه . لم يكن عتريس قد بلل الرمل بالماء ، وتمرغنا قليلاً . وبعدها . قال عابدين : هيا نعبئ شيكارة الجير .

قلت له : وهل تستطيع أن تضرب غطس في قلب الرمل هكذا ؟

وابتعدت عدة خطوات وقفزت برأسي في بطن تل الرمل . تركني عابدين وذهب وحده يعبئ شيكارة الجير ، أمسك بالكوريك الثقيل . وغرف به من كومة الجير ، وكلما وضع الجير في فم الشيكارة ، أطبقت فمها ولفظت الجير خارجها ، كنت أرقبه وأنا أتقلب على الرمل . منبطحاً على بطني . لكن من حين لآخر كنت أنظر في اتجاه بوابة الجيرة ، فإن قلبي يدق بشدة كلما فكرت أن العربة الصغيرة قادمة بأجراسها ، وعلى مقدمتها جلس عتريس وبيده نبوته القصير – يضرب به عظمة ظهر الحمار ، أو يضرب به خشب العربة – حتى يسرع . كنت لا أرى شيئاً وأنا منبطح أضم الرمل إلى صدري ، وأريح خدي على ملمسه البارد .. كما أنني لم أسمع جلجلة الأجراس المعلقة في رقبة الحمار . عندما توقف عابدين عن محاولة العمل وحده . ألقى بالكوريك ومشى نحوي ذاراً عينيه ، عاقداً ما بين حاجبيه . وقد لوى فمه المستدير .

قال لي : متى سأذهب لإحضار (سندوتش) تقلية البامية ..

تذكرت أبي جوعان . وتقلبت للمرة الأخيرة على ظهري ثم على بطني ، ثم على الأرض الصلبة .

وقفت أنفض ملابسي وعنقي وشعري . واقترحت على عابدين أن نرجئ تبييض بيوت الحارة إلى وقت آخر . ويأتي معي إلى بيتنا . يقف عند باب الحارة ولا

يصدر صوتاً – حتى لا تحس به زينب أم إبراهيم الطفشان . فهي إن رأته معـــي ، تمتنع عن إعطائي التصبيرة . قال لي أنه لن يصدر أي صوت . وإنه سيختبئ تحت بئر السلم حتى أصعد وأعود . وأخذ ينفض يديه ويعاونني في إسقاط حبات الرمل عـــن عنقي وشعري . لكن حبات الرمل كانت قد تسللت إلى ظهري والتصقت بجلدي . وصـــارت ضرباته على ظهري تلسعني . فجريت أمامه . وكان يجـــري خلفـــي . خرجنا من الجيرة نتسابق . ما كدنا نصل إلى جذع النخلة المقطوعة . حتى كـــادت عربة عتريس المندفعة نحو الجيرة . تصطدم بنا . ثم مشينا في صمت . نتصور حجـــم الكارثة التي أفلتنا منها ، وسمعنا قبل أن نبتعد صوت عتريس يزعق ويسب ، ويسأل الـــجيران والنوافذ المغلقة عمن سرق الرمل وسوق الجـــير في غيابـــه . ويلعـــن سنسفيل جدود أهل الحته . ولا أحد يرد عليه .

بعد أن حصلت على التصبيرة بشق الأنفس بعد إلحاح وإصرار – حتى أني ألقيـــت بصدري على فوهة الحلة ، حتى لا تدلق زوجة أبي قورن البامية ، وتغرف لي مـــن التخديعة في قلب الرغيف . وأغلقت الباب فقالت : كل الرغيف هنا واغسل يديك – قلت لها : سآكله على بسطة السلم – قالت لي : الولد الصايع عابدين ، يلبـــد لك تحت بئر السلم . إذا ما نظر في رغيفك ينزل لك بالسم الهارى .

تحيرت كيف عرفت أن عابدين يلبد تحت بئر السلم . وكيف عرفت أني سأقتســـم رغيفي مع عابدين . زوجة أبي تتفوق على ذكائي . لا أفعـــل شـــيئاً في الخفـــاء إلا وتكتشفه . وكان ذلك يجعلني أفكر في حيل جديدة . أشد غموضاً ..

تصنعت أني آكل . وقضمت قضمة في فمي وأخذت أهرسها بأسناني ، وانصرفـــت هي إلى المطبخ ، فجذبت ترباس الباب ، ونزلت السلم زحفاً كالثعبان . وجـــدت عابدين واقفاً في الظلام عيناه تلمعان . يواصل ابتلاع ريقه ، ورائحـــة طبيـــخ (أم إبراهيم) تنسكب في المنور . هنا كنت أخشى عابدين ، إنه يصير كـــالقط الـــذي

أغلق عليه باب الحجرة وبدأوا في محاولة قتله . يستدير ويقوس ظهره ويرفع يديه إلى أعلى .. كان أيضاً منفوش الشعر كالقط الشرس . صار حجمه مضاعفاً . عابدين لا ينتظر أن أقتسم معه الرغيف - يمد يده ثم يستردها . وتمتد مرة أخرى وهو يواصل ابتلاع الهواء . من الطبيعي أن يكون النصفان غير متساويين - ومن الأصول أن يترك لي النصف الكبير . لكنه كان ينقض على النصف الذي يراه كبيراً . وأنا كنت أخدعه . أجعل النصف الذي يبدو صغيراً معظمه غير ظاهر . أما النصف الصغير . فأمسك به من طرفه . أو أجعل (الغموس) معظمه في النصف الأصغر .

ونحن نأكل متلاصقين . غافلين ، انقض علينا عتريس أبو نبوت ، وأمسك كلُ منا من ظهره ، جمع ملابسنا في قبضتيه الكبيرتين ، طار من يدي نصيبي من الطعام ، لكن عابدين دفع ببقية (الساندويتش) في فمه . حتى وهو معلق في الهواء ، ويطوح به (عتريس) وكأنه ينفض (بيجامة) فارغة . كان عابدين يبتلع الطعام .

- يا أولاد الكلب . سرقتما الجبيرة ، أم ماجدة فتنت عليكما. لا تنكرا ..

كنت تحت بيتنا . وصحت فيه : أم ماجدة الهبلة . وهل هناك من يصدق كلام أم ماجدة الهبلة ؟ فارتخى قليلاً ، بل كاد يتوقف عن رفعنا عن الأرض .

ولكنه عاد إلى تعليقنا . عندما وجدني أنتهز الفرصة ، وأحاول الهروب نحو بيتنا طلباً للعون . وأنبح بصوت عال ، حتى يمكن أن يتقدم أحد سكان الحارة - أو تأتي زوجة أبي لإنقاذي . ولكني لم أفعل ، فإن رد الفعل دائماً عند والدي - أن يوقع على رأسي اللوم . وهو عندما يضربني . كان يصالحني . لكنه في هذه الأيام . يقاطعني . ويتحدث عن شقاؤه والعيال وقرفهم ، وتعبه في العمل ، وعدم تقديري لعذابه . وأسمعه يتحدث بصوت حزين لم أعتده منه . وأنا الذي كنت أتصور أنه أقوى أب في الدنيا ، وكنت أخاله فارساً . الدنيا كلها تؤمر بأمره - ثم تكشف لي

أنه شخص ضعيف . ويشكو من المرض ، وينام كثيراً وهو جالس معنا على الكنبة . ويتحدث عن متاعب لا أعرف مصدرها ، حتى وهو يزيد ويعيد شكاياته من الدنيا . أنـدهش أن أبي يشكو من الدنيا الواسعة والتي تـزداد إتسـاعاها ، في حصـص الـتاريخ والجغرافيا . وأنا الذي كنت أتصور أن الدنيا هـي بـاكوس وأقصـى حدودها محطة الرمل ، وسينما فريال ، مكان نزهتي في الأعياد .

لم أصدر صوتاً . وعتريس أبو نبوت يخضني ويرجني بيده القوية . كأنه يريد أن يثبت لي أن رأسي فارغ . وليس به عقل . وكان عابدين أيضاً . يتلقى غضب عتريس أبو نبوت صامتاً . ويتحمل الهزات لأسباب خاصة به . فأي مشكلة سوف أقـع فيـها ويكون معي عابدين ، يتركونني في حالي ويمسكون في تلابيبه هو ، يصفحون عـني مـقابل التعهد بأن لا أمشي مع الولد اليتيم الضائع عابدين . ثم يصبـون لعنـاتهم على رأسه ورأس خاله ، الذي لم يحسن تربيته وتركه للحواري .

– من منكم الذي سرق الجير ؟ ومن منكم الذي سرق الرمل ؟

قلت لعتريس – في لحظات توقف فيها عن خضنا :

– يا عم عتريس . أنا ضربت غطس في الرمل . وكنت أحرس الجيرة حتى تحضر ، وعابدين أخذ يعبئ شيكارة الجير بالكوريك الثقيل . فلم يستطع ..

– ومن الذي أذن لكما بدخول الجيرة من أصله يا أولاد الكلب ؟

أمسكت بيده حتى لا يعيد هزنا .. وقلت له : – انت راجل طيب يا عم عتريس ، وتحب حتتنا أن تكون نظيفة ، أنا وعابدين ذهبنا لنعرض عليك – أن تساهم بقليل من الجير لندهن جدران البيوت باللون الأبيض .. هل يعجبك شكل البيوت وطوبها الأحمر المتسخ .

ارتاحت قبضة عتريس على ظهورنا . وضعنا على الأرض بجواره .. وسأل :

– ومن الذي سيقوم بدهن الجدران يا فالحين ؟

قال عابدين : أنا وحسين ..

مسح عتريس جبهته المغضنة بكم قميصه الأصفر القديم وقال :

– انت وحسين . وهل تقدرأن على ذلك ؟

قلت له في تحد : أنا وعابدين . سندهن كل البيوت في الحارة باللون الأبيض أعطنا الجير وشُف النتيجة .

رأيناه يضحك . ورأيت أسنانه الكبيرة المتفرقة . ثم رأيناه يبتعد . ثم توقف واستدار وقال : إن كان الأمر كذلك . تعالوا بيضوا سور الجبيرة ، أنا عندي الجردل والفرشة.

ومشينا وراءه . وأنا وعابدين نكاد نتعانق من شدة السرور . صنع لنا صفيحة من الجير . وأشار إلى الجدران الثلاثة للخرابة – التي استولى عليها – وجعل مجبرته بداخلها . وكانت الجدران من الطوب الأحمر القديم المتسخ بالسناج . فقد كان الناس يلقون في الخرابة المخلفات والقمامة . ويشعلون في أكوامها الحرائق .

وفي حماس عيالي ، بدأنا في دهن الجدران . وانصرف (عتريس) إلى عمله ، والسائل الجيري يبلل سواعدنا ويتسرب إلى أجسادنا ويتناثر على وجوهنا ونحن فرحين بما ننجزه .. ونحلم باليوم الذي نرى فيه كل جدران الحارة كاللبن الحليب لتنافس حارتنا الأحياء الإفرنجية النظيفة .

وعتريس أبو نبوت كلما حضر ورأى ما لغمطناه من الجدار . يشجعنا . ويحمل عربته بالطلبات ويذهب . ويترك الجبيرة في حراستنا . وبعد ساعتين من العمل .. ولم نكن قد أنجزنا سوى مساحة ضئيلة من الجدار الداخلي . شعرنا بالضيق والملل . وكنا قد أفرطنا في استخدام السائل الجيري . حتى غطى أجسامنا . وملابسنا وبعض رذاذه دخل في عيوننا . وصارت ألسنتنا التي تخرج مع اللهاث . تلعق بعضاً مما يتناثر على وجوهنا ..

دقت النار في جسمي ، ولع جلدي من نار الجير . وقام أبي بمساعدة زوجته أم إبراهيم الطفشان . بإيقاع اللوم على الولد العفريت . عابدين . الذي إستدرجني إلى الخرابة ، وقام بحرقي في مجيرة أبو نبوت . وأصرت أم إبراهيم . أن يصحبني أبي إلى نقطة بوليس باكوس ، ويعمل محضر لعابدين وخال عابدين . حتى يمكن إدخالي المستشفى الأميري أو العلاج على حسابهم . وأنكرت أن عابدين هو السبب . فقال والدي : هي عادتك أم ستشتريها ؟

وليس هدومه ، وقبض على رسغي بشدة . فصرخت من جلدي المحروق . لكنه جرني خلفه ومشى بي بخطوات عصبية إلى نقطة بوليس باكوس . وعندما دخل حجرة (النوبتجية) كان خال عابدين يقبض على رسغ عابدين ويلقي بأقواله في محضر ضد أبي الذي لم يحسن تربيتي . وكنت السبب في حرق الولد اليتيم عابدين أيضاً ، حتى يمكن تحويله إلى المستشفى للعلاج . وعابدين يبكي وينكر صلتي بهذا ، وخاله يجذبه إليه ثم يبعده بطول ذراعه في عصبية لينكتم الولد حتى ينتهي من إملاء المحضر . ويقول له : هي عادتك أم ستشتريها ؟

وعندما بكينا ، استمع حضرة الصول إلى شكوانا . أوقف جريان القلم على الورق وسأل خال عابدين ، ووالدي :

– لماذا لا تتهمان الفاعل الحقيقي ، عتريس أبو نبوت ، الذي استغلهما في تبييض جدار المجيرة . ؟ ما رأيكما في أن تحررا له محضراً ويأتي ليدلي بأقواله ؟

ولكن خال عابدين سكت ، وغمغم أبي : عتريس أبو نبوت .. يا نهار أغبر .

وقال لحضرة الصول : إنه رجل شراني ويشاكس طوب الأرض .

وقال خال عابدين : الصلح خير يا أفندي .. مالنا نحن وعتريس أبو نبوت ، هي شقاوة عيال .

وانصرف خال عابدين وأبي من نقطة البوليس . يتحدثان عن عتريس أبو نبـــوت ، الذي ليس في قلبه رحمة ، ولا عنده ضمير . .

وأنا وعابدين ، تتشابك أذرعتنا. ونخطط لرحلة إلى غابات أفريقيا ، نكون فيـــها في حماية طرزان . ونلعب مع شيتا ، ونركب الأفيال ، والأمر كما بينه لنا – مـــدرس الجغرافيا – بأن النيل يأتي من هذه الغابات، وكما كنت أظن – إذا ما مشينا علـــى حافته المعاكس لاندفاع المياه ، سنصل بالسلامة إلى طرزان ، الذي سنستدل عليه ، من صيحته المعروفة لنا آآآآآآه .

**** ****

تنثال على رأسي الذكريات وأنا أخطو عتبة البيت الذي بناه المرحوم عتريس أبـــو نبوت مكان الجبيرة . التي استولى عليها بوضع اليد ..

وأتجاهل عن عمد ، حكاية أم صباح ، التي استحوذ عليها عتريس في أواخر أيامه ، بوضع اليد ، بعد استشهاد زوجها في حرب أكتوبـــر . وحصولهـــا علـــى المعـــاش الاستـــثنائي . وقد تزوجها بعقد عرفي . كيف جعلته يكتب لها البيت . بيع وشراء حتى يتهرب من ديون قديمة عليه . ومن ظهور وريث لأصحاب الخرابة .

ثم مات في الجبيرة . وهو يشرب الشاي ، عندما تغير اتجاه الريح ، ودفع بدخان الجير المحروق في اتجاهه . فلم يتحمل أزمة الربو التي فاجأته (شديـــــدة) ولم تتوقـــف إلا بطلوع روحه .

وكان أبو صباح . هو خال عابدين – الذي جعل عابدين يتطوع مثلـــه في الجيـــش لـــيزوجه من صباح . لكن صباح اختارت عريسها . وهربت معه . وعـــابدين – وقـــد انتهت الـــحرب . فقد أثناء العمليات . وأنا أخطو عتبة بيت أم صبـــاح .. أتذكر صاحبي عابدين . وأعثر في ضمالها وحنوها على روحي المسروقة . وهي تقول لي في دلال أنثوي زائد . تعيش وتفتكر يـــا سي حسيـــــين ،،،،،

واحد شاي

لـ علي موسى ..

[علي موسى .. ولد في نجع من نجوع (سوهاج) . غادره وهو في العشرين اشتغل في السويس أيام السلطة الإنجليزية ، وتقلب في أعمال عديدة ، وانتهى به المطاف في الإسكندرية .. أبي لم يكن يخجل من فقره .. وكأنه وهو الرجل الأمي – كان يعلم بأن الفقر – ظاهرة اجتماعية يسأل عنها الأغنياء . في أيامه الأخيرة – كانت تنثال على ذهنه الذكريات القديمة .. كان يخصني ببعضها .. بصفتي ابنه البكري . وكأنه ينصبني خليفة له – لأخوض المعاناة بعده – كبيراً للعائلة . أمي فاطمة – وأختي روحية ، أرملة مات زوجها شاباً ، وخلف لها ثلاثة أولاد – ليس لهم عائل إلا [بيتنا] وإسماعيل الذي – لحق بربيع الثورة – فتمكن من الالتحاق بالجامعة .

ولكننا جميعاً – بدخولنا المتهافتة .. كنا نقاوم – لنحفظ ماء الوجه ..]

** ** ** **

[اشتغلت في البحر . الميناء كلها خير – لكن لمن يملك قلباً ميتاً . ولا يخشى العواقب ... !

المعلمون الصعايدة ، ماسكون شغل التحميل والتعتيق والأوناش ، لكنّ أبوك لا يرضى أن يدوس له أحد على طرف ، عشت عمري لا أنحني ليركب أحد على أكتافي . كلنا أولاد تسعة.لن أكون عبداً إلا لله وحده ، والناس يحبون من يسجدون لهم

فاكر. لما أمك كانت بتزعف حيطان البيت بزعفة النخل. وقطعت صـــورة الريّس

ر . زعقت فيها وضربتها بظهر يدي على بوزها ، أمك التي شربـــت المـــر معي قبلي وبحري ، بوزها جاب دم .(فاطنة)على نيالها . لا تعي قدر حبي للرجل الذي قال . كلنا أولاد تسعة . ارفع رأسك يا علي يا موسى .» يتجاهل تعليقي . ويقول :

– حاكم يا ولدي ، إمارة النفس على النفس شئ واعر ..

** ** ** **

" عرابي جاب داغه ، الولس . باشوات البلد . عملوها فيه . لا جل يـــا عيـــني ينهزم . كبيرة أنك تطأطيء رأسك بعد ما كنت رافعها ..

عندنا في الصعيد الموت أهون من انك تشيل كفنك وتقدمه لعدوك لأجـــل مـــا يعفى عنك ، كيف لعدوك يعطيك الحياة .. يا خبر أسود يا ناس ، عدوك يمشى السكين على رقبتك ولا يقطعها ، وفي إمكانه يقطعها بدون دّية ، عـــرابي قـــدّم سيفه للإنجليز .. كان أكرم له يموت في التل الكبير، ماذا يعني أن يعيش عـــدداً من السنين وهو ذليل ، أنا لو كنت مكان عرابي .كنت أحارب الإنجليز حتى لـــو كنت وحدي ....

بصّ (عبد الناصر) لما تكاثروا عليه – ثلاث دول – رجل صعيدي،راسه ناشفه زعق من فوق منبر الأزهر ، سنقاتل، وكررها عشرين مرة ! . وهاهو في الآخر مات على سريره ، في بيته ، وسط أولاده ، ماذا كان سيبقي من عبد الناصر إذا ما كان سلم ذقنه في حرب بور سعيد ، والبخاري ، كانوا شربوه الذل دنيا وآخرة لأجل هذا .. أمك فاطنة .. عذرتني . ولزقت الصورة على الجدار كما كانت .. الصورة يختبأ خلفها الأكلان .. لكن لو كانت امرأة نظيفة ، لن يكون هنـــاك (أكلان) يمشي على الحائط .. !

** ** **

" اسمع يا ولدي .. أنا لما تركت شغل المينا ، تركته لأني كنت أخاف عليكم ..
أنتم أولادي ، كيف أربيكم بمال حرام ؟ المال في المينا سائب. والبطن لا تشكر .
. وإذا سرقت مرة وبررت السرقة ، ستسرق كل مرة وتبرر السرقة .
شوف الويكة التي تطبخها أمك بدون لحمة – ناكلها وكأننا نأكل السـكر .. !
حتى العدس والبصارة .. ربنا لا يغفل عن (عشا) عبيده ..!
تركت البحر . واشتغلت في الجمعية التعاونية .. مساعد جزار ، الثورة عملت
الجمعية لا جل الجزارين والبقالين يطاطون بالأسعار ، لا أحد يستغل أحداً ، ولا
أحد يتآمر على أحد ، لكن النفوس ، بعض النفوس أمارة بالسوء وناس عينهم
لا يملؤها إلا التراب . يا ولدي
في الجمعية يشفوا اللحمة ، القطعة الزينة الحمراء يبيعونها للجزارين ، والدهن
والشغت ولحم البطن المعظم يبيعونه (للغلابة) .. وياريت يبيعونه بالساهل ، لو
يوقفوهم طابور ويتآمروا عليهم .!
شئ يفور الدم ، عيب يا جماعة ، هذا لا يصح ، الرئيس بيـهاتي في الراديو
والجرانين ، وأنتم أذن من طين وأذن من عجين !
مسكوا لي على الواحدة .. أنت اتأخرت دقيقتين (أبصر إيه . مدرك إيه) .. في
يوم الدم ضرب في نافوخي . . قلت أكتب بنفسي شكاوى فيهم . أشكي .
يحضر المفتشون. يجدونه كله تماماً .. (نماركم طين) اسكت . اللحمة الزينة تروح
للجزارين . يبيعونها الطاق ثلاثة .. ويبان عليهم العز .
(يا أولاد الصرمة)

قلت في نفسي . يا ولد يا على .. انقطع عيشك مع أولاد الحنث !
إذا كان (عبد المنعم) مدير الجمعية موالس ، والمفتشون يدلعونه . ويسمونه (نعومة)
. يبقي من المؤكد .كل مفتش من الثلاثة ، ستصل إلى بيته لفافة اللحم الزيـــن .
والناس تأكل الشغت،وعدوك ، يا إبراهيم يا ولدي ..
شومة ، من التي أرقص بها في أفراحنا ، وألعب بها تحطيب ، خطفتها من فـــوق الدولاب . . .
وبكل الغل الذي في قلبي ، هجمت عليهم .. وهـــات يـــا ضـــرب ، جـــاءت الإسعاف وشالت الأوسطي الجزار ، وبائع البقالة ، وبائع الخضار .. !
أصل بائع الخضار،كان بيكتفني من ظهري ، عامل نفسه بيحجز .. لكن أخذ له شومتين على أكتافه . . وفوق البيعه ، المدير المتنسون .. !
(نعومة) .. أخذ نصيبه . مع أنه في الأول ، أخذ ذيله في أســـنانه ، وقـــال يـــا يافكيك . . وقف في الشارع يصرخ كالحريم .. وبعدها وزه عقله،ودخل الجمعية قال يهددني بالبوليس . .!

** ** ** **

عارف . لما وصلت النيابة . وعرفوا أني سأتكلم عما أثارني ، وما رأيته بعيني .. لموا الموضوع وقالوا نتصالح أحسن ، وقالوا لي ، لكن تقدم (إستجالة) . قلت لهم ، يعني إيه (إستجالة) ؟ أنا لا يمكن أشتغل معاكم تاني .. قالوا خـــلاص . تمضي على ورقة ، رفضت أمضي على الورقة .. تحيروا .. لكن لما طلعت لهم . الختم يبصموا به ، فرحوا ، كأنهم لقوا لقّية . !

** ** ** **

بعدها كل الناس في باكوس . والسوق . بقوا عارفين الموضـــوع . أمشـــي في الشارع أو أقعد على قهوة يونس ، أو البطل ، أشتري طماطم – يقولـــوا لي . خلِّ غنك أنت يا على يا موسى .. حط فلوسك في جيبك يا ر جل ، نحن نحـــب الناس الجدع ، واحد صاحب ملك ، سألني ، أين تشتغل الآن يا على موسى ؟ بعد ما طربقت الجمعية على رأس أصحابها ...

قلت له : على باب الله .. قال لي – ونعمة بالله – افتح جنب باب بيتي كشك تبيع فيه ما يعجبك ، ولن يطردك أحد من باب بيتي ، أنا صاحب الملك ، وبيته يطل على السوق دوغري .. طيب . ما الذي أبيعه في السوق ، وليس لي رأس مال . أبيع كرمله وشكليطه ؟. لا . أنا سأعمل (شاي) لناس السوق وبدل ما يتركوا بضاعتهم ويذهبوا (للجهوّه) – أذهب لهم أنـــا بصينيـــة الشـــاي (والكبابي) . وعليها ، برمت بالصينية برمة في السوق . فرغ البراد الكبير من الشاي والناس تعرفني ، تلاغيني . وكل البياعين وأصحاب الدكاكين يشاورون عليّ ويطلبون شايا ، أرزاق يا ولدي ، ربنا يطعم الـــدود في الحجـــر .. رزق الغلابة .. .. وفرجت من أوسع الأبواب ..]

** ** ** **

الزمن اللعين ، امتص الجسد الطويل . والوجه الأسمر . صار جلداً على عظم . قليلون من يعرفون لون شعر رأسه ، فهو ، طول عمره ، يكبـــس غطـــاء على رأسه في الصعيد – وفي أفراح الصعايدة بالإسكندرية . كان يضع علـــى رأسه اللبدة ، فيما بعد استبدلها بالطاقية الصوف – وفي أوقات الراحة بالمـــنزل إذا ما أرتدي الجلباب البيتي فله من نفس قماش الجلباب طاقية ذات ســـور يغطي بها شعر رأسه ، وينام بها على السرير ، وكان شاربه لا يزال كثيفا فوق شفتيه المقلوبتاين الغليظتين ..

كان (على موسى) يرقد على السرير ، وأمي أمسكت بغلاف مجلـــة قديمـــة وراحت تهش ذبابة صفيقة ، تحوم حول وجهه . ولا تجد لها مكاناً لتقف فيـــه لم يتفصد بالعرق . . .

كنت قد أتيت من عملي الشاق بمصنع الصابون .. لم أكن سعيداً بهذا العمـــل . الذي كان صاحبه يربط زيادة الدخل ، بالعمل الإضافي . والمرتب ثابتاً،بالكاد يجعلني أساهم مساهمات غير فعالة في مصروف البيت .. ولا أدرى ماذا سأفعل إذا ما أغمض (على موسى) عينيه ورحل .. وترك لي الجمـــل بمـــا حمـــل ..! شقيقتي وعيالها .. وإسماعيل العليل . عندما صحبته أمي إلى مستشفي حكومي . قال لها الطبيب : يا ست ابنك غير مريض ، ابنك مراهق ،ولابد له من الغذاء حتى يعوض جوحه العاطفي ، اطبخي له فراخ ولحمة . أو عقليه، وإذا كان في مقدوركم . من الأفضل أن تزوجيه . !

كنت متعباً . وضائقا . وذراعي اليمنى التي أدق به القالب في الشغل . مكدوداً . جلست على طرف السرير أنظر إلى (على موسى) دون أن يتغلغل الحزن في أعماقي ، كان ذهني مشغولاً . بما سيحدث بعد رحيل الوالد ، الذي لن يخلف لنا معاشاً ، ولم يدخر شيئاً من رزق السوق ، كان من اليد إلى الفـــم.لذلـــك كنت أشاهده وهو مسجى أمامي ، وكأني أشاهد مشهداً تمثيلياً ، ستعقبه مأساة مفجعة .. !

في الأيام التي تنشغل فيها أمي . تنسي إعداد طعامٍ لي . تترك هذه المهمة إلى (روحية) وروحية على قلبها مراوح ، انسدت نفسي ، مع إني أشعر بـــالفراغ ببطني ..

لكني كنت في حاجة لإشعال سيجارة وتدخينها . (على موسى) كان يعلم بأني

أدخن لكني لم أدخن أمامه – تدخين الابن أمام والده . عيباً ، وعند الصعايدة يعتبرون الابن الذي يفعل ذلك (فرخاً) وابن حرام ، فهو بذلك . يستهين بأبيه . ولا يكنُّ له احتراماً .. !

وربما كان يدخل – على موسى – بعدي – الحمام . الذي دخنت بداخله سيجارتي – كان يفتح النافذة على اتساعها ويلوح بيديه كأنه يطرد الذباب [.. هش .. ش .. ش دبان غتت] لكنه لم يواجهني بذلك ، مع أنه يؤمن بأن إذا كبر ابنك خاويه ، وتلقائياً ، وأنا شارد الذهن ، تحسست علبة السجائر في جيب القميص ، تحركت عيناه الغائرتين مع حركة يدي .. ثم ثبتهما في وجهي .. وقال بوهن وضعف .

– إبراهيم . . .

ملت عليه حتى لا يجهد نفسه ويزعق .. قال في أذني ..

– أنا أعرف من زمان انك تدخن .. إذا كنت تريد أن تفك عن نفسك بسيجارة . دخن يا إبراهيم ..

اغرورقت عيني بالدموع ، ولكني تماسكت ، فسالت أنفي فأخرجت منديلي . ومسحت دموعي .

هنا تذكرت أمي ، أني لم أتناول طعاماً منذ حضوري من الشغل ، قالت في هلع

– يا خبر . تدخن قبل ما تأكل لقمة .. (إخص عليكِ) يا روحية ..

قلت لها . كما يخاطبها أبي : شبعان يا فاطنة ..

ومن بين أحزانها . رفت على وجهها ابتسامة . ثم عادت تنشغل بمطاردة الذباب عن وجه الوالد الذي كان ضائقاً ويلقف أنفاسه .. طلب مني أن أعدل له رأسه وأرفع المخدة ، ففعلت .. التفت إلى أمي . ثم هز رأسه لها لتقترب منه وقال في أذنها :

- فاطنة . روحي حضري لقمة بنفسك لإبراهيم . حتى لو تقلي له بيضتين . لا تتركي الواد من غير طعام ، قلبه يسقط .. واغصبي عليه ، يأكل !

على الفور انسحبت أمي ، وهي تبرطم بكلمات ضد روحية المشغولة بقضـــاء طلبات أولادها . . .

بقى يتابعها حتى خرجت من الغرفة ، ثم رفع وجهه نحوي وقال : قرب مني يـــا إبراهيم ، وكنت جالساً على طرف السرير - فزحفت نحوه ، وضعت ذراعـــي على المخده خلف رأسه .

وصرت في أحضانه .. كنت أتوقع بأنه سيسرّ لي بأحد أسراره ..

قال بصوت واضح نوعاً : إبراهيم .. أنا شفت أبو زيد الهلالي ..

تساءلت مندهشاً : أبو زيد الهلالي .. من ؟

قال في حدة كمن يخاطب غبياً : أبو زيد الهلالي . بطل السيرة الهلالية .

قلت : آه .. آه .. . أبو زيد الذي هزم الزناتي خليفة .. وهل جـــاء لـــك في المنام؟

قال وهو يمسك بيدي التي لا أتساند عليها : كلمني وكلمته ، كما أتكلم معك الآن . . . .

وقفت أمي بباب الغرفة وقالت بين الجد والهزل :كفاك يا رجل . أنت تخيلت؟ !

قال لها - بعد أن استوعب تدخلها : اسكتي يا فاطنة . روحي لحالك [استدار نحوي] أمك تعلم بهذا الموضوع . أنا لا أخفى عنها شيئاً .

خطر لي . أن أصرفه عن إحساسه بالمرض فسألته : ماذا قال لك أبو زيد .. ؟

- [أبو زيد لم يقل لي شيئ] . كان متعجلاً للسفر (للغرب) .. !

إذا عاد مع أبو القمصان ويونس، اعزم عليهم وضايفهم ، اذبح لهم الذبـــائح .

ومد لهم السفرة .. أكلهم . وضايف بني هلال.ومن يساندهم . أعمـــل معـــهم الواجب ..

نفسي بيتي يبقى مفتوح يا إبراهيم .. ويقولوا – على موسى ، لم يمت . . .

كان يلهث . وأنفاسه تتحشرج . سحبت من تحت رأسه المخدة ، وجعلته ينام .

قلت : ما بك يا أبي .. استرح .ولا تجهد نفسك .

قالت أمي:كفاك يا أبا إبراهيم . خد نفسك يا خوي .. الدكتور قـــال الكـــلام عليك واعر . لكنه قال بصوت واهن .. [فا ١١١ طنة]

وتجمد كل شئ ، وفي بطء .. سقطت اليد التي كانت تمسك بيدي ..

****

خطوة .. خطوة ..

رقصت السيجارة على طرف فم مدير المصنع [معظم المساهمين من عائلتـــه] وهو يرسل نظرة عبر البوابة الحديد الثقيلة . فيرى من خلف قضبانها ثلاثة مـــن العمال .. وقال لأمين المخزن العجوز ..

– أدخلهم على المخزن يا بطرس .. سأجيء لاختبارهم بنفسي ..!

وهرول بطرس نحو البوابة وهو يمسح بمنديله عرق صلعته المســتطيلة والشعــر الهائش الذي يحيطها من الخلف .. وعندما اقترب من البوابــة . زعــق داخــل كشك صغير ملتصقا بها ..

– أدخل العتالين يا بيومي ..

.. وخرج بيومي البواب من مكمنه . وجذب ترباس البوابة ذات اللسان الغائر في الأرض المسفلتة . فأصدرت البوابة صريرا بثقلها ، وهو يحرك ضلفة منـــها . مائلا بجذعه إلى الخلف ، لاعقا بلسانه طرف شاربه ، يزعق بيومي في العمـــال الثلاثة المتلاحقين ، يهمون بالدخول من الفرجة التي أتاحتها ضلفة الباب .

– العتالون . الذين جاءوا ليتعينوا .. يدخلوا . . .

ودخل الثلاثة ، كان في استقبالهم بطرس أفندي ، كلما مر أحدهم من أمامه لمس ظهره بيده. وكأنه يحصيهم .أو يريد إبلاغهم .بمسؤليته عن تعيينهم في المصنع .. ! ثم صاح فيهم : انتظروا .. تمهلوا .. حاذي إنت وهو ..

وشملهم بنظرة فاحصة ، خص كل واحد منهم بجزء منها ، وظهرت على وجهه علامات عدم الرضا ، لانخفاض مستوى اللياقة البدنية . ومع ذلك فقد ســبقهم

بخطوة – وأشار إليهم أن يتبعوه . وهو يمشي نحو باب المخزن . في لفحة الشمس ومنديله المحلاوى مهدل في يده ..

العامل الأول ، يشبه (كمساريا) مطرودا من الخدمة . ملابسه تيـــل أصفـــر . الجاكت . والبنطلون . والحذاء القديم الذي يشحتف به في قدميه . طويل ورأسه محدوف أمامه ، في الخامسة والأربعين ، لكن وجهه الممصوص يعطيه عمرا أزيد .

العامل الثاني ، قصير وسمين، يشبه (موظف أرشيف) بالبطيخة التي تســـــقط تحت صدره ، وساقيه القصيرتين ، كان يرتدي قميصا طويلا أسدله فوق بنطلونه الصوف القديم .. فوق الأربعين .

العامل الثالث ، كان قصيرا ، ورقبته غليظة ، لونه أسمر كالأســـوانيين يرتـــدي جلبابا رخيصا . وحذاؤه كبير بدون جورب . وطاقيته صوف داكنة يكسبها في رأسه برغم حرارة الجو الخانقة .. يزيد عمره عن الخامسة والثلاثين . يخال لمن يراه أنه هارب من خدمة أحد المنازل ، لولا الشارب الكث الذي لا يري إلا عن قرب لسمار وجهه الشديد .. كان يسير في أعقابهم . يرفع وجهه وكأنه يشب عـــن الأرض ليعوض قصر قامته .

اتجه الموكب إلى بوابة المخزن ، ودلفوا بداخله ، ينتظرون ، وتبعهم البيه المدير. ولا تزال سيجارته تستقر في طرف فمه . يغمض إحدى عينيه من أثر الدخــــان المتصاعد إليها . وهو يدخل عليهم . كان يقلب بين يديه بضعة أوراق ..

وينشغل بها عنهم.وكان يرتدى قميصا بنصف كم . وجيب القميــــص محشــو بالنظارة والقلم والولاعة وعلبة السجائر الأجنبية .

سارع المخزنجي وقرب له مقعدا ، فجلس عليه وهو لا يزال ينظر فيما بين يديه من أوراق . رفع وجهه برهة ونظر للعمال الثلاثة الذين يقفون بالقرب منه

ثم عاد إلى أوراقه . أدرك المخزنجي العجوز . فجأة . أنهم يقفون مقتربين من البيه المدير ، أكثر من اللازم . فاندفع إليهم ، وأشار بيد عصبيــــة أن يرجعــوا إلى الوراء . فتراجع الثلاثة خطوة أو خطوتين ..

وساد الصمت حتى ينتهي (البيه) من عمله .. ويبدأ في عملية الاختبار لإجازة من سيتم تعيينه عتالا في المخزن !!

كان الوقت ظهرا . والدنيا صيفا.والمخزن به رصات من الـــورق . والبكــرات والبالات . وأحبار الطباعة . والدشت . وسقف المخزن من الصاج . وليس له منفذ ماعدا الباب ونافذة تطل على حوش المصنع . أغلقها المخزنجي بإحكام . صهد حرارة الشمس أمام المخزن . والحرارة المنبعثــة مـــن داخلــه . وبعــض الكيماويات أشاعوا . مع الحرارة الخانقة . رائحة مميزة ..

ألقى البيه المدير بعقب سيجارته أمام قدمه . وتكفل بهرسها بحذائـــه الإنجلـــيزي اللامع.ثم طوى الورق ورفع بصره إلى العمال مرة أخرى . ثم تحول إلى المخزنجي ممتعضا.وارتبك المخزنجي.فتوترت أطرافه.وتحرك.وعاد وسكن .

قال المدير :

ما هذا ياسي بطرس .. أنت متأكد بأنهم علقوا إعلان طلب الوظائف ؟

– علقوه يا بيه ..

– قالوا فيه.مطلوب عتالون لمخزن الورق .. ؟

–نعم يا بيه أنا علقت الإعلان بنفسي ، وأشعت الخبر عند كـــل الأســـطوات والعاملين .. لأجل ان ينشروه ... !

أطرق المدير . فمال رأس المخزنجي العجوز ، يود لو أنه كان منبطحــا علــى ظهره أمام وجهه.ليرى حقيقة انفعالاته في هذه اللحظة .. وعندما رفع البيه المدير رأسه فجأة . ارتفع رأس المخزنجي وانتبه .

قال المدير وهو يشعل سيجارة أخرى ، وخلفه لافتة تمنع التدخين مطلقا ودون أن يوجه كلامه لأحد مُعيَّن.

– نحن نريد عتالين لمخزن المثقلات . هنا .

وغرز أصبعه في الهواء . كأنه يضغط على زر جرس . واستطرد :

– يشيل رزم الورق . يرص البالات . والبكرات . يستف البضاعة . يعتق العربيات ويحملها .. و ..

وسعل العامل الذي يحمل بطيخة تحت صدره . أهاجت الحرارة والرائحة النفاذة أزمة الربو في صدره . فسكت اليه المدير . ونظر إليه شزرا ..

وقفز المخزنجي العجوز حتى واجهه . يريد أن يلومه على مقاطعته للمدير . بالكحة الجافة التي تصدر منه : زغده في صدره ، وعينه على شفتي المدير اللتان يتلويان في جانب فمه . عندما تمخط العامل ومشي ناحية الباب وبصق . سكن المدير تماماً . وانشغل بالنظر في سقف المخزن للحظات . وعاد العامل مكانه .

لكنه ما كاد يقف أمام المدير . حتى هاجمته سلسلة طويلة من الكحة التي بدأت بفواصل أخذت تضيق وتتلاشى ، حتى صارت كحة زاعقة ليس لها فواصل .

بل صرخات متحشرجة تخرج من صدره المأزوم ، وزحف ناحية الباب . مد يده فاستند على حديده الساخن . ثم احتضنه وهو يلهث . يكح ويبصق ويكاد يبكي تحت هزيمته أمام المدير . وضياع فرصة التحاقه بعمل ..

المخزنجي العجوز تنازعته عدة مشاعر . لا يدرى . هل يرثي لحاله ويعاونه أم يسخط لنعلته الشنعاء في حضور السيد المدير ، وشعور بالحياد الملزوم يجعله مجمداً في مكانه .. أفاق على نظرة من المدير واشارات من يده، كأنه يذب ذبابة عنيدة تحوم حول معصمه ...

لم يفهم المخزنجي . ماذا يريد البيه المدير . بهذه الإشارات . ثم أدرك فجـــأة أن الإشارات تعني [خلصنا من هذا الرجل المريض الذي رسب في الاختبار قبل أن يبدأ] فاندفع نحو المصدور الذي حاول أن يتماسك ويعود إلى مكانه . ولكـــن المخزنجي أمسك بمحاولته في شئ من الرفق الحازم .. وجعل كم جاكتتـــه بـــين أصابعه . سحبه خارج المخزن . ومشى به إلى البوابة الكبيرة .

- يا ابني أنت تعبان ، وعيان ، وتريد أن تشتغل عتالاً .. كيف ؟! قل لي كيف؟! شغل المخزن يجيب أجلك .. يقضي عليك .. شيل وحط . انت . برضـــه حمـــل الشغل المتعب في المخازن .. !!

والرجل المصدور . يحاول التشبث بأقدامه . يحاول تخليص كم الجاكته ، يلهث. يرفع إليه وجهه . يرجوه .. ولكن المخزنجي بقي يتكلم . حـــتى أوصلـــه إلى البوابة .

– افتح البوابة يا بيومي . الر جل تعبان . يلحق يستريح في بيته ..

وفتحت البوابة . وتسلمه (بيومي) أخرجه بدفعة خفيفة في ظهره . وأغلقـــها خلفه.وعادت الأزمة تماجه . فكان بيومي يواسيه بلهجته الصعيدية من خلـــف الباب . وعاد المخزنجي إلى مخزنه مهرولاً .. ووقف مكانه وكأنه لم يقـــم بـــأي مجهود،محاولاً أن يستنبط ما انقطع عنه .. ينقل النظر بين العاملين الباقيـــين.ولم يكد يفهم ما يقوله البيه المدير . حتى أدرك أن إشكالاً حـــدث في غيابـــه بـــين المدير وأحدهما فالمدير وهو ثائر ،كان يطلب منه أن يصرف الرجـــل الـــذي يشبـــه (كمساري) الأتوبيس . والذي كان متصلباً.وينظر للبيه في تحد وقلة ذوق،اقترب منه، ومد يده ليلمس ذراعه ، فإذا بالعامل – قليل الذوق – يدفـــع يـــده في خشونة . كأنه أحد أعدائه ويسارع وحده بمغادرة المكان وهو يقـــول بصـــوت حشاشي :

– يا سيدي الأرزاق على الله .! هو انته ربنا ؟ ربنا لا يخلق أحداً وينساه ..
ماذا تريد . بغلا أستراليا . قل لهم يستوردوا لجنابك . بغلا .. هذا أفضل .. »
قال ذلك وهو يمش خارجا ، ووقف المخزنجي على باب المخزن ، رفع يده
ليحجب عن عينيه شمس الظهيرة . وصاح بصوت قوى يصل للمدير . وبيومي
البواب في نفس الوقت :

–يا بيومي . . طلع الأخ بره . . بره خالص يا بيومي . . !
وطلعه بيومي . وهو يواسيه (ما عليك يا ولد العم . تتعدل . ربنا الرزاق)
ومشي الرجل يبرطم بكلمات غير مفهومة . ويشيح بيديه ..
وعاد المخزنجي ليقف بجانب العامل الأخير . وسمعه يرد على أسئلة المدير
– اسمي قبيصي مهران . من قنا . كنت أشتغل مع ولد عمي الجنايني في بيت
واحد خواجه . لكن الخواجه سافر بلده وباع الفيلا . ومكان الفيلا بنوا عمارة
– لا لم أشتغل عتالاً . – ! أقدر أشيل . جسمي قليل لكن واخد على الشقاء –
أتعلم يا بيه – الأجر القليل يبارك فيه ربنا – فضل ونعمة يا بيه .
وخلع (قبيصي) جلبابه ، كوره وأمسك به تحت إبطه ، كان يرتدي تحته فانلة
طوبي بأكمام طويلة ، وسروالاً يغطى ركبتيه ، وصديرياً قديماً ..
بإشارة من البيه المدير ، جرى المخزنجي خارجاً من باب المخزن . عبر حوش
المصنع ودلف إلى أحد العنابر . وعاد بصحبة رجلين فوجدوا المدير قد وقف
و قبيصي يروح ويجي أمامه كعارضة الأزياء ..
لكن المدير . أشاح بيده . وقلب شفته . وفهم قبيصي أنه لم يحز إعجاب المدير
لأنه قصير القامة وجسمه ضئيل . لكنه لم ييأس . قال في شئ من التحدي
– يا بيه . أقدر أشيل أي شئ عندك في المخزن ، بإذن الله .

وأشار البيه المدير إلى (بالة) تضم عشرين رزمة ورق . وتحاط من الأجناب بعوارض خشبية مثبتة بالشنبر الحديد ، وتزن مائتي كيلو تقريباً .. وقال :

– ماذا تعني.هل تستطيع أن تحمل هذه البالة وتمشي بها حتى نهاية المخزن .

ونظر قبيصي إلى البالة المضغوطة.وأعتقد أنها في وزن جوال الغلال . وأنه يمكنه أن ينزل تحتها ويقوم بها . فهي كما قال المدير – ورق – مهما كان وزن الورق فهو ورق .. فقال باستسلام يشبه التحدي ..

– أشيلها يا بيه ..

قال ذلك في صوت مبهور يشوبه التوتر . لكن المدير نظر إليه مستهزئاً وقال :

– أنت قصير وجسمك قليل ، المخزن يحتاج لواحد جامد ..

صعد الدم إلى رأس قبيصي مهران . ونسي رعشة صوته ، وكأن البيه المدير يشكك في رجولته ، نسي أنه غادر الصعيد منذ عامين ، وأنه في الشهور الأخيرة بعد تعطله كان إذا ما بذل مجهوداً شعر بالدوار .. وأنه لم يعد يأكل بانتظام .. .

يا بيه . حتى لو كانت قدر هذه البالة مرتين .. بعون الله ، أشيلها وأمشي بها

– هكذا ..؟

– نعم .. اجعلهم يضعونها فوق ظهري .

المخزنجي والرجلان ، يتابعون المدير الذي يستثير قبيصي ، وقبيصي الذي يتورط لا يتراجع .. وعينه على الوظيفة ، وقال المدير :

– حسناً . اتفضل شيل ..

ألقى قبيصي بجلبابه المكور على أرض المخزن ، ووقف مستعداً تحت الرصّة ، ما على الرجلين والمخزنجي إلا أن يزحزحوا (البالة) لتسقط على ظهره. توتر

المخزنجي العجوز . لكنه لم يجرؤ على إعلان رأيه . وتجرأ أحد الرجلين واقترب من البيه المدير . وهمس في أذنه .

– يا سعادة البيه ، البالة ثقيلة ، قدر وزنه ثلاث مرات ، بطل العالم يصير بطلاً للعالم . إذا حمل قدر وزنه مرتين .

حدجه المدير بنظرة احتجاج . لقطع استرسال متعته . وعرف فيه النقابي الذي يؤرقه بمطالب العمال ..

– اسكت يا على . إذا لم تكن تريد أن ترفع عليه البالة . اذهب وشوف شغلك فغادر (على) المخزن . وضاعف هذا الموقف من رعب قبيصي مهران .

ومع ذلك لم يتخاذل أو يُبد ضعفاً ، وحضر رجل آخر ، والمخزنجي يتصبب عرقاً . والمنديل المحلاوي يدور فوق رأسه وخلف أذنيه

اتكأ المدير إلى الوراء . مسندا مقعدته على المكتب الخاص بالمخزن . وأخذ يشاهد محاولات الرجال الثلاثة وهم يزحزحون البالة عن رصتها لإسقاطها على ظهر قبيصي مهران . وكلما رفعت . سقطت من بين أيديهم . وأخيراً . تم زحزحتها ودفعها حتى حافة البالة التي تحتها . ودخل قبيصي بظهره . وهو مشدود الأعصاب وكأنه مذنب يواجه حكم الإعدام .. ومع استخدام قوة الرجال الثلاثة القصوى تم وضع البالة على ظهر قبيصي . وتركوها . ليحملها وحده .

استقرت البالة على ظهره فتخلخلت ركبتاه . ولكنه عاد وتماسك . كان المدير يلعق بلسانه شفتيه . تتلاحق أنفاسه إثارة ...

وتمايلت البالة . انزعج الرجلان والمخزنجي ، وجفلوا بعيداً ، حتى المدير ، رغم بعد المسافة بينه وبين قبيصي ، تحرك من مكانه . لكن قبيصي الذي استحالت يداه إلى كلابات حديدية . تمكن من الإمساك بها ، وإيقاف تزحلقها ، وقد انحني

إلى الأمام . فاستقرت . قليلاً . نفرت عروق وجهه . ورقبته . وقد كتم أنفاسه
نز العرق على جبينه ، ولمعت جبهته السمراء .. وحاول أن ينقل قدمه ويمشي
بها . لكن البالة كان ثقلها يثبته في الأرض . وكأنه مسمار . تم دقـــه في بـــلاط
المخزن .

كان يعرف أنها إذا سقطت ، سيسقط هو في الاختبار ، ويفقد الوظيفة وكـــان
ثقلها فوق الطاقة تهرس عظامه . وتلوي رقبته .. لكن لابد وأن يتحرك .. زعق
[يا رب] [يا قوي] وبعد لحظات . كان يمشي بها إلى عمق المخزن . تتمايل
ثم تعتدل ، يسرع خطوتين . ثم يتمهل ، يميل وينتصب ببدنه القصير ، وانتفض
المدير ، وأخذ يلوح بيديه ، ويدق الأرض بحذائه الإنجليزي ، ويقبض على الهواء
بعصبية ويغمغم (عظيم .. عظيم .. خطوة خطوة ..)

وفي كل خطوة كان يتوقع أنها ستسقط .... وقال للمخزنجي

– كيف مشي بها هذا الملعون : ؟

وعندما عاد إلى مكانه ، لم يكن أحد بقدرته إنزالها من فوق ظهره فأمره المديـــر
بأن يلقي بها على الأرض . لكن قبيصي استدار وجعل طرفها علـــى الرصـــة .
وأنزلها برفق فوق رصتها ..

وسر المخزنجي والرجلان لقرار التعيين الفوري . عتالاً بالمخزن . ومشي قبيصـــي
إلى مكان جلبابه المكور الملقي على الأرض ، مال عليه ليتناوله ولم يشعر أحد
بما يعانيه من آلام . وأنه لا يستطيع أن ينصب طوله ..

لقد تخشب جسم قبيصي مهران ، وبدا أنه يعاني من ضغط هائل على كاهله
وكأنه لا يزال يحمل البالة الثقيلة فوق ظهره .. فجلس مكانه أمام الجلباب

وبطرس المخزنجي كان فرحاً بانتصار قبيصي على (هزل) البيه في هذا الاختبـــار الغريب . قال له

– ما بك يا قبيصي عن أي شئ تبحث في الجلباب

– أبحث عن البطاقة والأوراق . .

في الواقع كان قبيصي يستريح قليلاً حتى يمكنه أن يقف مرة أخرى

أشاح السيد المدير وقال وهو يغادر مكان العرض :

– الأوراق .. فيما بعد .. أنت ظهورات ، ثلاثة شهور تحت الاختبار .

.. ومكث قبيصي في مكانه أمام الجلباب ، يقلب فيـــه ، ويبحـــث عـــن الأوراق المزعومة .. حتى تنصرف الآلام المروعة التي تهرسه تحتها .

ثم احتضن ثوبه أخيراً .. وقام ببطء ، محنياً ، حتى وقف .

وكان يمسح بذيل الثوب ، العرق وبعض الدموع .....!



٤

* فعل خارق للعادة

* عصفور في اليد

* النوّة

[فعل خارق للعادة]

أغرب سبب قدموه له تبريراً لنقله من فروع الإسكندرية إلى الإدارة العامة بالقاهرة عندما سأل . قالوا : إن المفوض العام للشركة الذي حل مكان مجلس الإدارة ، لتعثر الشركة في تحقيق أهدافها ، كان يبحث في الملفات عن أشخاص أياديهم نظيفة ولم يتقيد بالمراكز أو الدرجات التي حوله بالقاهرة ، إذ تطلع للاستعانة بالعاملين بالفروع والمحافظات الأخرى (وابسط يا عم فقد صار اسمك ضمن أسماء عشرة أفراد ، انتقاهم (المفوض) بعناية ليستعين بهم في مراجعة بعض الأعمال على مستوى الشركة ، ولعلك ستستفيد من المأموريات والبدلات ومكافآت اللجان .) وكعادته لم يعلق على من يشاغبونه ، فقد كان لا يزال يمارس حياته في هدوء ، ولم يخرج بعد من شرنقته .. !

إبراهيم عبد الرحمن – له مصدر مأوى منتظم – بجانب مرتب الوظيفة ، عبارة عن عقار قديم موروث، ثمانية شقق بإيجار قديم – لذلك، كان ينأى بنفسه عن شجاعة اللصوص ، وإن كان – لفراغه من الهوايات والمبادئ المقلقة للراحة ، يشغل نفسه أحياناً بتأمل جسارة الذين يستولون على المال العام بمبررات غاية في الذكاء برغم نار القوانين وحرائق الضمير !

كان قد عمل (بالشركة) بعد حصوله على تقدير (المقبول) من كلية التجارة التي تعثر في بعض مراحلها ، فلم يحصل على مؤهله إلا بعد أن تجاوز الخامسة والعشرين .. وخدم في الجيش ضابطاً احتياطيا . استبقوه حتى صار على أبواب الثلاثين .

كان عمله هناك عند اندلاع المعركة ، إدارياً ، لإعداد كشوف المرتبات ، ومع ذلك فقد حصل على لقب (المحارب) ، وكارنيه يجعله يتمتع ببعض المزايا المقررة

للمحاربين القدماء ، دون الإحساس بالفخر (مثلهم) .. كان يفضل الكُمون حتى في فترة التحولات التي أعقبت الحرب ، وأُثري فيها البعض ، وقيل عنها (من ، يُثري في هذه الأيام فلن يُثري مطلقاً) . مرت فوق رأسه دون أن يشعر بها – فلم يهتبلها أو يعارضها ، فضل أن يبقى فرداً بين أفراد (الكورس) قانعاً بأنه لا يملك مواهب لعب الأدوار (السولو) . ولم يكن ثمة فرق يعتد به من أن يكون مكتبه معداً بالآلة الحاسبة في ثكنة الوحدة العسكرية أو في غرفة من إدارة شركة ......

كان يتحرك بنفس المعدلات البطيئة في حرص من يمشي على سلك مشدود ، يحسبها ويعقلها ، ويعود يدقق فيها فتأتي خطوته التالية دائماً بعد فوات الأوان ، وهو من الذكاء أن يدرك حقيقة أسس العلاقات ومبدؤها السائد (شيلني وأشيلك) ، ومع ذلك لا يأخذ الخطوة في اتجاه ربط مصالحه بمصالح الآخرين ، وكان يستطيع أن يبتلع غضبه وهو يرى رؤساءه في العمل من المؤهلات الوسطى الحركية أو من حملة الصلاحية من العمال غير المؤهلين ، الذين امتطوا ظهر العمل النقابي بجعجعتهم الفارغة ، فدانت لهم بعض الدرجات ، وكثير من المكاسب المنتظمة .

ومع ذلك كان البعض يخشاه ولا يسقطونه من حساباتهم فتفننوا في وضع العراقيل أمامه ، وبناء الأسوار حوله ، حتى يصعب عليه إذا ما انقلب أن يجري في مجراه الطبيعي ، فتراكم فوق بعضه متسانداً على السدود التي صنعوها له ، مستفيداً منها لحماية نفسه ، واكتفى بالانضمام إلى (عواجيز الفرح) الممنوعين من التداول .. والذين ينفقون أوقاتهم في البحث عن (الأصول) وحث الغداشين على التمسك بعلامات الطريق .. فتعلم (كيف يمشي سنة ولا يخطي قنا) وانعكس ذلك عنده على المسألة العاطفية ، وهو الذي أقترب من عامه الثامن والثلاثين وبات يهدده العام الأربعون . يلكزه ، لينبهه إلى محاولات الفتاة الجميلة الجريئة ، التي عملت في السكرتارية ، ووجدت في علاقته المهذبة يداً حانية تترفق بها ، وقد علمت أنه أعزب

ميسور الحال ، وهي من بيت فقير كثير المسئوليات ، أنفقوا آخر ما يمتلكونه على تعليمها ، رأت أن المعادلة مناسبة للطرفين .

لكن إبراهيم عبد الرحمن ، أزعجه أن تنشغل به فتاة لها هذا القدر من الجمال فتوجس شراً ، وأخذ يدفع عنه هذه المشاعر بالهجوم عليها (أخلاقياً) في المنطقة التي لا يحسمها قولٌ واحد وتحصن هو في قلعته المحاطة بمناعة التحفظات التي تعزله في برجه البعيد مع الحسرة والندم والوحدة .

خاصةً بعد أن تزوج شقيقه الذي يصغره ورحل بزوجته للعمل في الخارج وترك له الشقة القريبة من شاطئ البحر ، وفيها أمه المريضة والتي تصل أحياناً في مرضها إلى حافة الموت ، ولكن هواء البحر كان يصد عنها قسوة الحافة ، يلصقها بها فلا تسقط منها ، فلا يقدر على دفعها من الحافة بعيداً لترحل أو لتعود إلى كامل صحتها لتقوم بخدمته ، ووقع على عاتقه هذه المهام الثقيلة ، وقد أفلت الشقيق وزوجه بعيداً كان يؤدي دوره المفروض ويحصل على كلمات الشكر والعرفان من الأقارب والجيران ، إنه يضحي بنفسه في وفاء نادر من أجل أمه الحبيبة .. !

عندما نشيخ نعود أطفالاً ، ويلزم من يحيطون بنا كثير من الصبر والاحتمال .. !

وبضغط من أزمة الإسكان ، ناهيك عن الشقق القديمة المؤجرة ، فإن الشقة الواسعة التي يشغلها مع أمه ، صارت هدفاً لبعض الزميلات العوانس ، أنصاف الجميلات في عمله وكذلك بين الجيران والأقارب . !

وقد فازت (نوال) بنت بحري ، بشقة سيدي بشر ، بخطة غاية في البساطة ، عندما أشركته في مشاكلها العائلية ، مستعينة بنخوته ونجدته بصفته الزميل العاقل الذي لا ينظر إليها نظرات (محرمة) ، وهي التي تشعره بأنه في محل أخيها الذي مات ، وأبيها العاجز عن صد الرجل اللحوح المزواج الذي يطمع في اقتنائها على زوجاته ، وإنها لا تريد قتالاً ، فإنما تريد الاستعانة بمنطقه [illegible] لتهتدي به .

(وأنت يا أستاذ إبراهيم ، بأدبك وسمعتك النقية ، أطمئن لك وأكشف أسراري أمامك ..) .

ولم يتردد الأستاذ إبراهيم كثيراً وقد رغب تحت دوافع كثيرة ، أن يلعب دوراً إنسانياً ليجرب قدراته ، مستجيباً لليد التي اعترفت له بتلك القدرات الخارقة التي يطمسها فيه الآخرون ، وهو وإن كان لم يفعل إلا إبداء بعض الأقوال والنصائح .. فقد ذهبت (بهم) نوال بنت بحري وعادت إليه ترفع له رايات النصر ، فإن أقواله ونصائحه كانت السبب الرئيسي في كبح جماح الطاغية وردعه ، ذلك الذي تحدى والدها واستخدم أساليب الفتوات في فرض سطوته على بيتهم وقد تخلصت من هذا الرجل الثقيل ، فهي تستطيع أن تكلمه عن الرجل الذي تتمناه وتصف له ملامحه بكل دقة ، إنه هو إبراهيم عبد الرحمن نفسه بكل قدراته وطيبته وإنسانيته وقد صارت ممتنة له ، فلا مانع من أن تصارحه بأن شخصيته باتت تملأ عليها ذهنها ولابد وأن يكون بينهما هذا السر المشترك ، متواصلاً بضغطات الأيدي عند السلام حتى لا يدرك الزملاء حوار العيون ، وتقدم له بعض الهدايا التي يأتي بها الأقارب من الأراضي المقدسة ، مسبحة أو طاقية ، وسجادة صلاة . ثم بعض الأطعمة كعينات لشطارتها في إعداد الحلوى ، وبعدها هدأت وتجاهلته ليشعر بالحنين ورتبت صدفة ، تجعلها تلتقي به في طريقها لزيارة قريبتها في شرق المدينة .

ومن باب الزمالة يقوم بتوصيلها ، وقد ألحت أنها تأتي من الغرب إلى الشرق لأول مرة ،ويمضيان معاً بعض الوقت في جولات بحثاً عن الهدف المنشود على شاطئ البحر ، إذ تسأل أحد البوابين لعمارة كل شققها مغلقة ، وتعود إليه لتبلغه بأن حظها (حلو) إنها تقابلت معه ، وأن اليوم لم يذهب هباء ..

وهناك مع نسائم هواء آخر أيام الربيع ، وخلو الشاطئ من الرواد ، أمكنها أن تضع علـى لسانه ، رغبتها الدفينة ، وقبل أن يصرح بها وافقت على أن تشاركه التفكير في ترتيبات الزواج ، فهي لن تجد أفضل منه ، وأخذت تحدثه عن غرامها بأمه (الســت الحاجة) وإعجابها بوفائه نحوها ، وإنها على نفس الطريق ، ستضع والدته في (حبابي) عينيها وتغطيها بجفونها .

* * *

وفي أجازه شهر العسل ، قامت العروس بعزل (الست الحاجة) في الغرفة التي تطل على المنوّر ، أغلقت بنت بحري هواء البحر عنها ، وأمطرتها عن بعد بالضحكــات الممطوطة ، والغنج الأنثوي الذي ينقل للأم استغراق الابن وانصرافه عنها .. وبعدها كان أبوها الذي قالت عنه أنه عاجز عن الحركة ، هو الذي يصحب أخوتها وأمــها وأقاربها ليملئوا الشقة بالضحكات والتحركات التي تزيد من عزلـة الأم ، ووطـأة المرض ، لم تتحمل الأم معابثات الزوجة المتعمدة ، وإهمالها لهـا ، ونسـيان الابـن لواجباته نحوها ، فشق السأم طريقه في يسر لينهي مأموريته المرتقبة ، وترحل أمه في هدوء مريب ، عندما كانت (نوال) تتهيأ لوضع مولودها الأول – التوأم .
ومن اجل التوأم (استعمرت) أخوالها شقته لخدمة الطفلين . وصار لأبيها وأمها غرفة خاصة بهما ، وكذلك هجرت زوجة شقيقها المتوفي وولديها منــزلهم القديم الآيــل للسقوط في بحري ، وانضمت (للجماعة) في سيدي بشر ، والحصــرت مأموريــة إبراهيم عبد الرحمن (المسالم) أمام زحف آل نوال ، في سد الاحتياجات والمطالب التي لا تنتهي ، استولت نوال على راتبه ودخل العمارة القديمة ، وبالكــاد كــان يحصل على مصروفه الشخصي ، فلا يتذكره أحد إلا بداية كل شهر .. وعاد البطل إلى شرنقته القديمة من جديد ، متحصناً ضد العادات التي لم يألفها ، عادات نـــاس بحري ، خلطة التراث السكندري الموروث ، بجرأته في الاستمتاع بالحياة ، هو الذي

عاش على أطراف المدينة ، يجتر الأصول الريفية ، ويلوذ بها أمام تيـــارات لازالـــت
تتخفى وتسرى في أوصال المدينة ، التي كانت أوربية ، والتي كانت تجتاحها الرياح
الغربية في نوات متعاقبة كل عام ..

نوال وآل نوال ، جعلوا من شقته (مصيفاً) دائماً ، يحتفلون فيه بأيامـــه ولياليـــه
ويقيمون طقوسهم التي يتخللها السمك المشوي ، والسلطات ، وزجاجات البـــيرة
والأثـــواب الرقيقة التي تظهر أكثر مما تخفي ، والضحكات التي تتفجر من القلـــب
وما عليه إلا أن يعمل على سداد (الفواتير) ، ويبحث لنفسه عن عمل إضافي
فعند الضرورة هو (الرجل) الذي يقع على كاهله سد مطالب الحياة اليوميـــة لآل
نوال ، الذين يستمتعون ببهجة المدينة ، التي تنشر شعرها في موج البحر .

هل يشكو الإزعاج من آل نوال ، لنوال بنت بحري الجريئة ، التي جاءت له بولـــد
وبنت بعد التوأم ، فصار أباً لأربعة من الأبناء في خمسة أعوام .. (فمن الذي سيرعى
الأطفال) .

اضطر مرغماً أن يتصنع حالة الانسجام ، وحتى لا يشمت فيه الزملاء والأقـــارب
الذين حاولوا جذبه نحوهم ، فتغاضى عنهم حتى أصابهم بالإحباط ..

لذلك ، لم يقف طويلاً أمام سبب نقله من الإسكندرية إلى القاهرة ، بل أنه وجد في
هذا النقل فرصته وسلوته ، وإن أبدى بعض الضيق أمام (نوال) وأهلها ، الـــذي
وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة ن وفى قرارة نفسه ، رحـــب بأنـــه ســـيترك هـــذا
(المورستان) إلى حين ...

**** ****

كان القطار وسيلة انتقاله عندما يعود في نهاية الأسبوع . ، اعتاد بأن يركب الديزل
الفاخر ، فالشركة هي التي تدفع ، وبعدها فضل الانتقال إلى الدرجة الثانية المكيفـــة
أو العادية ن ليوفر لنفسه فرق بدل السفر

وكعادة من يتكرر سفرهم ، تتحول حقائبهم إلى مخزن لأشيائهم وأوراقهم ونقودهم التي يدخرونها في الخفاء ، من فائض بدلات السفر ، ثم يتفننون في جعـــل الحقيبـــة السمسونايت لتتسع لعدد من الغيارات ولوازمهم الشخصية .

أتى إلى المحطة والقطار على وشك التحرك ، أعاقه زحام المرور في شوارع القــــاهرة وضع الحقيبة على الرف وجلس على المقعد الذي عثر عليه خالياً .. كـــان ظـــهره للحقيبة ، وكان يتلفت في حذر من حين لآخر ، يرمق حقيبته ويطمئن علي وجودها وقد ازدحم الرف بحقائب وأغراض المسافرين .

وفي زحام اللحظات الأخيرة لقيام القطار ، صعدت إلى العربة سيدة شابة ، وضعت حقيبتها السمسونايت بجانب حقيبته ، وجلست على أحد المقاعد الـــتي يحجزهـــا البعض (للفاتنات) . ولكنها ما كادت تسأل عن مقصد القطار حتى هبت مسرعة إذ أدركت أنه ليس القطار المتجه إلى الشرق ، كان القطار قد بدأ في التحرك عندما قامت مسرعة لتهبط منه ، ومدت يدها وتناولت الحقيبة من فوق الرف ونزلت ولم تدرك أن ما بيدها ليست حقيبتها ، إلا بعد أن غادر القطار رصيف المحطة .. نعـــم حقيبتها تشبه هذه الحقيبة ، ولكن كان عليها أن تميز لونها البني الداكن ، فالحقيبـــة التي بيدها كانت سوداء ..

* * *

كان إبراهيم عبد الرحمن يتصفح الصحيفة – ويتلفت من حين لآخر فيرى مقدمـــة الحـقيبة فوق الرف ، وقد أحاطت بها الحقائب والأغراض الأخرى ، ولم يتوجـــس إلا بعد أن غادر القطار محطة طنطا ، وتخففت عرباته من معظم الركاب وحقائبهم . خـــيل إليه أن مقدمة حقيبته تختلف . فقام ليجلس تحتها ، اقترب منها ، وعندمـــا رفـــع وجهه إليها توتر ، إنها تختلف حقاً عن حقيبته ، تناولها وسحبها ، وجد أنهـــا تشبه حقيبته ، ولكن لونها بني غامق ، أخذ يبحث عن حقيبته فوق الأرفف ، فلـــم

يجدها ، حاول فتح الحقيبة فلم يستطع ، بدون أن يثير ضجة ، أدرك اللبس ، فـإن صاحب هذه الحقيبة أخذ حقيبته ، بكل ما فيها من أوراق هامة وتقـارير ، بكـل لـوازمه ، ولعلها سرقت ، بهذه الحقيبة للتمويه ، خشي إن عبر عن غضبه يتقـدم شخص ويستولي على هذه الحقيبة ، عندما سأله أحدهم عن وقوفه بينمـا المقـاعد خالـية ، جلس في هدوء وشكره على اهتمامه ، عاد يستفسر عن سـبب ظـهور القلق علـى وجهه ، وتلاحق أنفاسه ، ادعى أنه نسى ملفاً هاماً بالشركة .. وقطع الطريق عـلى هذا المتطفل ..

وجلس يرجو من الله أن يكون في الأمر خلطاً ، يمكن فصله بدون خسائر ، وليست مؤامرة محبوكة . توقعه في (حيص بيص) .

في (سيدي جابر) توجه إلى دكان حداد ، وفتح الحقيبة دون أن يحطمها .. تبين له أنها حقيبة لإحدى المدرسات تعمل بمدرسة ثانوية بالقـاهرة ، وتقيـم في مدينـة الزقازيق .. اسمها عفاف البنهاوي .

عثر على ما يفيد عنوانها وتليفونها .. فلم يتوان عن الاتصال بهـا تليفونيـاً مـن السنتـرال قبل أن تتصل بمنـزله وترد عليها زوجته ، ثم يحيطونه بالأقاويل .

رد عـليه صوت نسائي ، سمعها تستغرق في الضحك لهذا (الفصـل) الغريـب وتأسف له أنها اضطرت لفتح حقيبته المحشوة بالأوراق .. وتواعدا علـى لقـاء .

أعطته عنوان كازينو سياحي بالقرب من محطة سكة حديد الزقازيق .

اضطر أن يركب إحدى السيارات من خلف محطة سيدي جابر ، وحمـد الله أنـه لم يفقد الأوراق وتقارير اللجان ، التي يجب أن يعرضها على (المفوض) ، وفي جيب سري في الحقيبة مدخراته ، التي يحفظها بعيداً عن جشع زوجته ..

وصل إلى الكازينو بعد التاسعة مساء .. تعرف على حقيبته التي كانت تربض بجانب سيقان السيدة الأنيقة .. كما أنها تعرفت عليه من حقيبتها التي كان يحملها ..

ورفع كلُ منهما وجهه للآخر ، ثم جلسا على مقعدين مواجهين ، تفصل بينهما منضدة مستديرة ، كان جلوسه في بطء ، إذ شعر بأن هذه السيدة سبق له أن رآها وأن ملامحها ليست غريبة عنه .. هي أيضاً لم تشعر بأنه غريب عنها .. في وقت واحد تقريباً ، عثر كلٌ منهما في ذهنه على الآخر ..

* * *

ابتسمت عفاف البنهاوي في وجهه ، وكانت صورته التي عثرت عليها بين أوراقه ، قد أعادت ذكريات أيام الجامعة .

قالت : إبراهيم عبد الرحمن ؟

ومن بين فيض الذكريات – تذكر هو عندما كان بالمرحلة الثالثة بكلية التجارة كانت هي بالمرحلة الأولى بكلية التربية ، وصديقة لسوسن عبد المنعم . شقيقة فؤاد عبد المنعم ، جارهم وزعيم شلتهم بالكلية ، لكن الجميع تخطوه وتركوه لعثراته . بقي ينتظرها حتى تخرجا معاً ..

قال : عفاف البنهاوي .

قالت : ولكنك كنت من الطلبة ثقلاء الدم ، لا تنفتح على أحد .. !

وقال : وأنت كنت طالبة من الأرياف ، تحيطين نفسك بشرذمة من الطالبات الريفيات المتوجسات ..

وأخذ كلُ منهما يحكي طرفاً من حياته ، لكنه لم يلحظ أن بيدها (دبلة) للزواج أو الخطوبة . عرف منها أنها تعمل بإحدى مدارس القاهرة ، وأنها ليست متلهفة على إنفاق نهاية الأسبوع في بيت شقيقتها . وتجرأ وسألها : لماذا لم تتزوجي ؟ أطرقت قليلاً ثم قالت : لا زلت كما أنت تقول ما في نفسك دون تفكير ثم قالت معابثه : لقد بقيت في انتظارك ، ولكنك كما أرى قد تزوجت ، وضحكت ، فرقص قلبه ، ثم

أخذت تحكي عن محاولات زوج شقيقتها لتزويجها من صاحب الســـوبر مـــاركت والعمارة التي يقطن فيها . سألها : وما وجه اعتراضك ؟

قالت لأنه متزوج مثلك . ولديه أربعة أولاد ؟

نكأت جرحه ، فرغب أن يريح رأسه على كتفها ويشكو لها حاله . قال بدون تفكير : عفاف ، أنا أعيش في جحيم .. ! ثم أخذ يتخلص من همومه وقهره .. وهي أيضـــاً عادت تحكى له عن زوج شقيقتها الذي يعلو صوته بالضجر أمامها ، وهـــي الـــتي تعيش معهم وتنفق راتبها على أولاده . حتى يرغمها على تنفيذ رغبته ..

وأنها كانت تفضل أن تبقى بالقاهرة ، لكنها تشتاق لرؤية أولاد شقيقتها .. ضاقت أمامها السبل ، وفكرت أن تريحهم وتقبل هذه الزيجة التي لا ترغب فيـــها .. هـــي الأخرى وجدت من يسمعها ، هي الأخرى أراحت رأسها على كتفه ..

كل منهما نظر إلى حقيبته وفي ذهنه كثير من الهواجس ..

قال لها : عندي حكايات أريد استشارتك فيها .. أنا ما صدقت وجدتك .

وقالت له : الوقت تأخر ، والزقازيق مدينة ريفية ، تعد على الغرباء الأنفاس .

قال لها : أنا لا أرغب في العودة إلى الإسكندرية . فوقفت صامته دون تعليق .

استدعى النادل ، ونقده ثمن المشروبات .. وأمسك كل منهما بحقيبته . ومشيـــا في صمت إلى ميدان المحطة ، يبحث عن وسيلة تقلهما عائدين إلى القاهرة . يفكران في فندق (حسن السمعة ورخيص السعر) حتى يتفقا على (حلّ) مشاكلهما ...

.. وعندما كانت تضع يدها في يده ، وهما سائران .. كان كلُ منهما يشعر بدغدات الرغبة الجامحة . في الفعل الخارق للعادة ..

يشعران بأنهما .. الآن .. سيـــــــــــدآن ..

عصفور في اليد

.. عندما . وزع الأستاذ توفيق . ملف (نجوى هانم) ، خصني بـه . شعـرت بالضيق،فقد أرسل لي في الآونة الأخيرة . ثلاث ملفات.ثلاث قضايا في أمـاكن مختلفة . . .

" كنت أعمل محامياً مبتدئاً ، بعد أن تدربت على يد الأستاذ توفيق وفي مكتبـه المزدحم بالعمل . وترسب في ظني ، أن الرجل (يستغلني) ، لأنه يعرف أنني لن أستطيع خلق أية أسباب للرفض . مثل المحاميين الأربعة :الذين يعملون في مكتبه . وأحدهم يكاد أن يفرغ من تجهيز مكتب خاصاً به ، فكان طبيعياً ، بعد أن علم الأستاذ توفيق بذلك . أن . يتوقف عن تكليفه بالقضايا . التي يري أنهـا ذات خصوصية للمكتب . والتي تتعلق بنزاعات الأراضي . والتقسيم . والتعويضات وما أشبه . وأن يكلفه بالجنايات المعقدة ، والتي كان يري أنها ميؤس منها ...

نفخت الهواء بصوت مسموع – فإذا بالأستاذة سهير . محامية أحدث مني تقول لي في عتاب :

– قل:أستغفر الله العظيم ، يا أستاذ حسان . لا تحمل روحك ذنوباً . وتكفر !

" الآنسة سهير ز ليسانس حقوق بدرجة جيد . لو كان لي هذا . لفضلت التعين به في الوزارة ، أو في إحدى الإدارات القانونية بالحكومة أوقطاع الأعمال . ولا فلقة الدماغ . في زحمة العمل الحر .. الذي أمسي متشابكاً ومسدوداً ببلوكات المحامين الذين لا يراعون كرامة المهنة . كلما علم أحد من أقـارب الميسـورين بأنني أعمل محامياً ، بادر وسألني (في مكتبك ؟) وعرف أني أعمل لدى الأستاذ توفيق . يتأسي لحالي وكأني لازلت متعطلاً عن العمل . ولكن إلى أين أذهب بتقدير (مقبول) وحالة الأسرة بالكاد تطفو فوق - الحدود الدنيـا ، كنتـوء المطبات الصناعية . التي لا ترى على البعد . لوالدي كلمة مأثورة ترسـبت في ذهني عن هذا الوضع يسميها (الستر) وإذا ما سأله أحد عن أحواله يقول : (مستورة) والستر ومستورة لا تجعلني أتخيل . أن يوماً سيأتي سيكون لي فيـه مكتب خاص ، حلم بعيد المنال . أن يكون لي يوماً عملاء خصوصيون أفاصل معهم ، وعندما أبذل جهداً من أجلهم يقومون بتقديـره لي وحـدي . كـل جهودي مهما فعلت . تذهب للأستاذ توفيق . الذي . دأب في الأيام الأخيرة على إصدار تلميحات بالشكوى من عدم تمييز العملاء لما تفعله من أجلهم . وذلـك لكي لا يزيد الراتب القليل الذي يضيع معظمه في الانتقـالات والنثريـات . المدرس يجد عدداً من الدروس يزيد بها دخله . بينما الأستاذ توفيق يحاصرنا وله عيونه حتى لا نعمل لحسابنا ..

وقد بدأت أجتاز عامي الثلاثين ، ليس لي مسكن خاص . وأقيم مع العائلـــة . لازلت أعتمد على (ستر) أبي في استكمال مظهري الكاذب ومصروف جيبي . كنت بالطبع أتبرم . وكانت سهير . ومكتبها في مواجهة مكتبي تقف لي بالمرصاد . دائما تردني لكي أتوب إلى الله ، وأستغفره ، من كل ذنب عظيم (أما بنعمـــة ربك فحدث . يا أستاذ حسان . وأحمد الله على الستر ..) هي أيضـــاً تغـــرم بالستر . فأضحك ..

كانت سهير – فتاة على قدر متوسط من الجمال . ويبدو أن هذا القدر – على طبيعته دون زواق صناعي – قدر معقول – فهي محجبة . وترتـــدي الأثـــواب الطويلة الفضفاضة . وفي أوقات فراغها ، تقرأ في كتب عذاب القبر ، والأدعية . وسيرة الأنبياء . والعلاج بالأعشاب . والموضوع الأثير المثار دائماً بيننا هـــو إغفالي لمواعيد الصلاة ،التي تنبهني إليها في مواعيدها – مرة أو مرتين .. فكرت في الزواج منها . أو تصورتها زوجة لي . تخيلتها في قميص بيتي . وحاولت من الوجه واليدين . والهيئة العامة ، أن أتصور ما تعمل على تغليفه في حرص مثير . واستحضرتها معي في غرفة النوم . ذلك . عندما كانت تجلس أو تقوم . تقف أمام الدولاب المكدس بالدوسيهات ، كنت أقيس مقاييس جســـمها وأُعيـــد تعبئته في قميص حرير شفاف . وجدتها . زوجة (فاتنة) ولكن ما جعلـــني لا أتمادى في خيالاتي . كيف أضع (سترى) على (سترها) ؟ وإلى متي ســـأبقى مجرد نتوء على الأرض ؟ .. كما أن ما بدأ من حديثها معي لا يشجع ، فـــهي

تفضل الشاب الملتحي المقيم في جلباب أبيض .. وفي معاكساتي معها . كان رأيها أن يكون المسلم في مظهره ، حتى لا يذوب في مظاهر الحضارة الكاذبة .

وهذا الجهل المطبق على دنيانا من كل جانب – أقف في الناحية المضادة لها .. فتؤكد بحماس أستحبه منها دون الاهتمام بالموضوع [أن كل مآسي العصر . سوف تنتهي إذا ما كان عندنا أخلاق] وأحياناً كان يعجبني منطقها ، وعثورها على قضية تدافع عنها ، وكنت في معظم الأحوال أستمر في معارضتي لها مستخدماً قراءاتي . . وميلي إلى الفنون والأدب – وبعض مناقشاتنا – تكون لإزجاء وقت الفراغ ، أو بغرض الترفيه ، بعد شقاء العمل . – ولم تكن تيأس وكأنها كانت تأمل في إعادة تشكيلي . وعندما تجدني أدفع الحديث بيننا إلى مجرى (حياتي) تتورد وجنتاها خجلاً . . . وتكف عن الحديث فجأة . أو تترك لي الغرفة وهي تردد

– إبليس . سبحان الله في أمرك .. !

ولكن . عندما كنت أسألها عن عائلتها . كانت تفيض في الحديث عن أخواتها البنات والصبيان . والوالد والأعمام والأخوال ، أعمالهم وممتلكاتهم – بالتفصيل المملّ .

ساعتئذ . كان يخيل لي أني أستمع إلى صوت (الخاطبة) تسرد على مسامعي مزايا عروس المستقبل .

" ملف نجوى هانم ، طليقها ، وكيل شركات أجنبية للسلع المعمرة ويملك عدة معارض ، وهو شريك في عدد من المصانع الصغيرة الانفتاحية ، التي تستولي

على قطع كبيرة من الأراضي الملتصقة بالمدن الكبرى . ويمتلك عمـــارة مـــع شركاء هذا الزوج المليونير . قام بتطليق (نجوى هانم) بادعاء أنه ضبطها تخونه مع صديق له . – فاستولى على سيارتها المرسيدس . وشقتها الكبيرة عبارة عن طابق في عمارة كبيرة من ثلاث شقق . وكان قد وهبها لها بعقد ابتدائي . بينما كانت تقيم في (فيلا) بمنطقة ميامى ، كانت قد ابتاعت نصفها مـــن شقيقـــها الذي يعمل في الخليج . . ويضم الملف أوراق الفيلا الـــتي نازعـــها طليقـــها في امتلاكها . وبلاغات مقدمة للنيابة . من طليقها ضدهـــا – ومنـــها ضـــده . والطلبات العاجلة النفقة لطفل عمره ستة أعوام . ومستحقاتها]

كان الأستاذ توفيق قد حضر معها عدة جلسات ، وقد تحددت جلســـة بعـــد أسبوع . رأي أستاذنا . أن محامي الزوج سيطلب التـــأجيل . وهـــي مرحلـــة التسويف التي يتمسك الخصوم باستترافها . لذلك كلفت بالحضور بـــدلاً منـــه لانشغاله في قضية بطنطا .

كنت وأنا أتصفح الملف ، أرسل تعليقاً في المستندات ، مـــن بـــاب التســـلية والاندهاش كأن أقول – وكيل شركات أجنبية . يا عيني ، تلاقيه مليونير ابـــن الرفضي ..

معارض ، وأجنسات ، وأراضي ومصانع ، وعمارات ، أوعدنا يا رب . بشقـــة أودتين وصالة ، وأكسر لنا رقبة (الستر) أحسن الواحد يهج من كار المحاماة ويبيع شمام اسماعيلاوي ، يا عسل أبيض ، يا كيزان العسل يا حلو . . م نجـــوى.

هانم ، طبعاً ، ونصف ، ومن حقك يا أستاذ توفيق تكتـــب (هـــانم) بـــالبنط العريض على الملف ، مرسيدس ، بربع مليون ، وشقه بمليون .. وفيـــلا بثلاثـــة ملايين .. المسكينة تلوّعت وبتركب عربية مازدا بستين باكو . وطالبه نفقـــة . عشرة آلاف جنيه للمحروس . شهرياً إوعدنا يا كريم ، أنت العاطي "..

كنت أخاطب نفسي ، وإذا بالآنسة سهير تنخط في وجهي منفجرة :

– من فضلك يا أستاذ حسان . كف عن ذلك . لا يمكن لأحد أن يقوم بعمله وأنت تتكلم بهذا الشكل المزري . كل كلمة في الملف تعلق عليها .. "

نظرت إليها ملياً . وجدت دمها فائرا . وفي عينيها غضب . وعلى جبينها عبسة جمعت الطرفين الغليظين للحاجبين في عقدة واحدة.ليتلامس السالب والموجب ويطير الشرر من حدقتيها ..

ما الذي جعل (سهير) تتضايق وتصيح في وجهي بهذه الطريقة العصبية .. التي لم أعهدها منها ، كانت عادةً ، تسمع وتضحك ، أو تسمع وتعلق ، بتعليـــق قصير .. فحواه.دع الخلق للخالق ، أو ، أسكت،فلقت دماغي ، أنا لم أعتد منها إلا الهدوء والرزانة وكظم الثورة وهي إذا امتلأت بـــالغضب ، اســـتغفرت الله بصوت مسموع ، فأفهم على الفور أنها تنفخ الهواء ، تقول :

(سبحان الله في أمرك) فأكف ، لها طريقتها في التفكير التي تختلف إلى حد مـــا عن طريقتي .. ثم لماذا لم تقاطعني .. منذ أن بدأت أسلي نفسي بـــالحديث مـــع صفحات الملف ؟ لماذا انتظرت حتى النهاية ؟ ، لقد فعلت ذلك بعد أن شاهدت

في السينما أحد الممثلين ، يمثل شخصية كاتب في دائرة . كان يتصفح السجل الكبير بحثاً عن أحد الشهور ، وبصوت يخرج من أنفه ، كان يقول :

– روح يا نوفمبر . تعالى يا ديسمبر .. ديسمبر .. ديسمبر .. روح يا ديسمبر تعالى يا يناير .. يناير .. يناير .. يناير .

وهو يبلل إصبعه من شفته السفلي والقلم الكوبية في أذنه .. أنا تربية السينما والتلفزيون .. مثل أي شاب عادي ، ولم أقصد مضايقة أحد . . قلت لها معاتباً

– أستاذة سهير .. هل هذا كفر ؟ !

سحبت نفسها من المقعد فجأة ، تعجلت بسحب الجزء العلوي قبل أن ترفع مقعدتها فأنفصل الجزئيين للحظات . برز نهداها . ما شاء الله . رمانتان ناضجتان ، وحتى وهي تحتدم بالغيظ الذي لا أعرف سببه . كنت (نفسياً) على استعداد لامتصاص غضبها،وقد اصطبغت شفتاها بلون الدم . آه يا سهير . لو قليل من الأحمر وقليل من الكحل الرباني .. و .. وسمعتها تقول :

–من فضلك يا أستاذ حسان ، المكتب له أسرار ،وللعملاء حرمتهم وأسرارهم !

قلت ببساطة تفلق ..

– لا يوجد بالغرفة سواك يا أستاذة . . وأنا أثق في أخلاقك ثقة عمياء عندما أتكلم كأني أتكلم مع نفسي . و

قاطعتني

– نفسك . ؟ ! نفسك الأمارة بالسوء .. ! .

-ماذا . أتخافين على أموالهم من الحسد . أن يصبحوا (مستورين) مثلنا .
- سبحان الله في أمرك ..
نزعت حقيبتها المعلقة في ظهر المقعد بشدة . فتعقد (السير) الطويل . جذبته في عصبية فتحرك المقعد نحوها ، ولم يتخل عن (سير) الحقيبة ،ورأيت عصبيتها تتفاقم ، وتلقائياً قالت للمقعد (سبحان الله في أمرك ..) ومع ذلك جذبت سير الحقيبة . فسقط المقعد محدثاً جلبة .
توقفت قليلاً . لعلها أرادت أن تعتذر . لكنها إندفعت خارجة من الباب بينما (عم حسن) وكيل المكتب العجوز ، وقد استحضره صوت ارتطام المقعد بالأرض . جاء مسرعاً . كادت أن تطيح به . الرجل ممصوص وعلى أبواب الستين ، أسنانه واقعة من الكيف ، ويتكلم بالعين والحاجب.ويحفظ كل شئ عن ظهر قلب . وهو خفيف الظل . وجدها فرصته أن يتشبث بذراعها . بكلتا يديه.وازداد حنق (سهير) عندما لحظت تشبثه بها .
كان رد فعلها . أنها طوحت بالحقيبة . لتهبط على رأس عم حسن . رأيت أكتاف عم حسن بدون رأس ، فقد انغمست رأسه في فتحة الجاكت الواسع . وعندما أخرج رأسه منها كان بؤبؤ عينيه يدوران في ذعر . وكانت سهير قد غادرت حجرة المكتب ، عندها انفجر الرجل ضاحكاً ، فإذا بها تصيح من الصالة ...
[سبحان الله في أمرك . يا إبليس يا عجوز]

نظرت إلى الرجل . النظرة ذات المعنى الذي أدركته من كلمة (إبليس) عض
عم حسن شفته الرهيفة بالسنة الكبيرة المتبقية في مقدمة فمه وقال :
(ملبن . ملبن جالس . ومتربع . ومتقنصل يا أستاذ حسان يا غفلان) ثم غنى
لحن [وأنت ولا أنت هنا] قال المقطع الأخير في لحنه الأصلي وهو يهز رأسه
طرباً . ثم سأل :
– ماذا جرى يا هلترى ؟ الأستاذة نرفز . إياك تكون زودت العيار ..
جلست خلف مكتبي وأنا أقلد طريقتها إذا تضايقت . أصيح فيه
– سبحان الله في أمرك يا أخي . وأنت مالك يا إبليس .

** ** ** **

السينما والأفلام علمتني أن كل الأغنياء ، في كل الأفلام التي رأيتها اغتنوا
وخلاص، هكذا بدون تقديم الأسباب الواقعية التي نعاني منها .. حياة الأغنياء
في الروايات ، قصر كبير وحمام للسباحة وأراضي خضراء يجري فيها الخيل
وخدم وحشم وسيارات وحفلات تعج بالجميلات . وكل شئ لامع وجميل .
حتى الزوجات ، يكن في جمال العشيقات، الواحدة منهن ، تفز من النوم ولا
كأنها نامت ، ولا حطت رأسها على وسادة ، الشعر تسريحته على الموضة ولا
شعرة انفلتت ، والعيون تتلألأ كنجمتين ، والشفايف حبات كريز .
وفي الروايات . يستمر (البطل) حتى لو كان لصاً ، يتمتع بكل شئ حوله .
يأتي بكل المحرمات على طول الرواية أو طول عمره ، ويأتيه العقاب في آخر
لحظة ، ربما لحق نفسه وثاب إلى رشده ، فكسب الدنيا والآخرة ، ومن هذه

الروايات ، صرت أنكر الواقع الذي حولي ، هذا الواقع الغريب ، الذي يجبرنا
على تقديم الأسباب (للستر) الفاحش ، وبت أحلم بمغامرة تـــأتيني بالمـــال
الوفير، الاستيلاء على جزيرة ضالة في المحيط ، أو انفجار بئر بترول تحت السرير
. وأصبحت لا أتصور أن من أنجبونا من البشر ، لأن نسائهم يقمن من النـــوم
منفوشاتٍ الشعر . وعيونهن منتفخة ، والواحدة منهن تطفح (الكوته) وبعلها لا
يقدر أن يشتري شقة صغيرة ليسكن فيها إلا بطلوع الروح ، والأسهل أن يمضي
الوقت متفرجاً على الروايات المدهشة فلا يشعر بالتعاسة التي يشعر بها الفقراء
الذين لا يشاهدونها بحماس . حياة الأغنياء في السينما . وأنا كواحـــد فقـــير لا
يشعر بالتعاسة ، كانت تراودني كثيراً من أحلام اليقظة . وكان لدي أمل ، لا
أدقق إن كان كاذباً أو صادقاً – بأنني ســـأكون يومـــاً مـــن أغنيـــاء الأفـــلام
والروايات، ثرياً مثلهم، وغير مطالب بتقديم الأسباب،والغريب أنني عمري مـــا
حلمت أن أكون (قاضياً) مثلاً . وأنا أرى القضاة المساكين كالجمال التي لا
تنوء تحت حمل القضايا،والنظر ينسحب منهم ببطء مع غزو أمـــراض الســـمنة
المفرطة أو النحافة المفرطة،بسبب الإرهاق المفرط ، وبالطبع أنا دارس للقانون .
وأعلم بأن القانون يطبق على (المستورين) بحذافيره . فليس لديهم المال اللازم
لتجنيد المحامين الذين يكسرون هذه الحذافير . حِذفيرةُ . حِذفيرةُ . وقـــد أدت
بي هذه الأحلام وأنا المحامي خريج الجامعة ، التي من مهامها شـــيل الغشـــاوة
الخرافية عن عيوننا ، أن أحلم بأن تتزوجني بنت الباشا ، كما في الأفلام القديمة

والتي صارت في الأفلام الواقعية الحديثة ، نجوى هانم التي ستلقي علي بشباكها فأسقط أنا في حبائلها كالقطة المغمضة الساذجة ، في محاولة هينة لمقاومة التيار الذي يجتاح أضلعي ، وأدعي أنني لا أقبل أن تصرف علي (سيدة) وتتمسك هي ، بأن تضع أموالها الخرافية تحت أقدامي ، فأقبل أن أشاركها مشاريعها أنا بجهودي وهي بالمال . و .. "

وكانت هذه الأحلام قد عبثت بذهني ، حتى موعد عقد (الجلسة) وكأني فرغت من كل شئ ولم يتبق لي إلا أن أتمني من الله ، أن تكون نجوى هانم . جميلة بالقدر المناسب، الذي يقف حائلاً أمام إغرائي بالسباحة في بارات وكازينوهات الكورنيش .!

** ** ** **

عرجت إلى المكتب في الصباح الباكر لأخذ ملف قضية نجوى هانم ، وجدت سيارة الأستاذ توفيق ، أمام باب العمارة ، لعله جاء مبكراً ، ليسافر إلى طنطا . عندما دخلت حضر عم حسن وقال لي : الأستاذ توفيق يريدك في مكتبه حالاً ..

ذهبت إليه على الفور ، فتحت الباب ، وجدت الأستاذة سهير ، تجلس في مكتبه (يا فتاح يا عليم) لعلها أبلغته بما حدث أمس ، ولكني رأيتها هادئة . وقد طبعت على شفتيها تلك الابتسامة الواثقة . قلت بصوت جعلته متفائلاً .

– صباح الخير يا أستاذ .. صباح الخير يا أستاذة .. خيراً .

قال الأستاذ توفيق وهو يعد بعض الأوراق في ملف أمامه ، دون أن ينظر في التجاهي ..

– أستاذ حسان ، خذ معك الأستاذة سهير . وإذا كنت مشغولاً بشيء آخر أعطها ملف نجوى هانم وفهمها الطلبات ..

مرت فترة من الوقت لم أحر جواباً ، رأيت أن ابتسامتها ازدادت وثوقاً ، وقد تباعد حاجباها في حالة من الزهو .. قلت في محاولة للوصول إلى ما خلف الواقع ..

– عموماً أنا عندي أعمال أخرى في المحكمة ، يمكنها أن تأتي معي ، تفضلي يا أستاذة ..

لم يعلق الأستاذ توفيق ، بقي منهمكاً في ملف قضيته ، قامت سهير ، في خفة تذكرت تعليق عم حسن العجوز ، مرت تحت أنفي ، عطراً خفيفاً ، ربما قد اغتسلت بصابون انفتاحي ، سبق وأعلنت أن عطر المرأة لغير زوجها حرام أن يشمه غريب عنها ، نزلنا الدرج سوياً ، هي أمامي وأنا خلفها ، قلت كأني أخاطب نفسي :

– الله .. الربيع ريحته حلوة .

كركرت بضحكة قصيرة ..

** ** ** **

المكتب في المنشية . والمحكمة قريبة ، عبرنا الميدان ، وفى ظل تمثال (محمد على) كانت ترام المدينة الصفراء ، تدق أجراسها خلفنا ، وضعت يدي على

ظهرها . أحثها على أن تسرع بعبور الشريط ، لم تجفل ، على سلم المحكمة قالت بلا مقدمات .

– بارك لي ، والدي ترك لي الشقة ، في محرم بك ، وسينتقل إلى أرض اشتراها في العامرية ، ناوي يعمل مزرعة دواجن بعد طلوعه على المعاش ، تصور يا أستاذ حسان ، أربع غرف ، ممكن ينقسموا ، مكتب ، ومسكن .. والشارع عمومي"

المحكمة مزدحمة ، وأنا وهي نخترق الزحام ، نتلاصق ونتباعد ، كتل من البشر من أصحاب القضايا .. وأمام باب القاعة الصغيرة ، نظرت في الجدول .. عندما وضعت إصبعي على رقم قضية نجوى سليم . ضد . . . . إذا بمن تدفعني في كتفي ، التفت ، رأيت امرأة ، كل شئ فيها ينم عن الثراء الفاحش . والجمال المتوحش على الفور أدركت أنها نجوى هانم . سألتني من أنفها :

– أين الأستاذ توفيق ..

قلت بدون تلعثم : أنا حاضر بالنيابة عنه ..

التفتت نجوى هانم إلى (رجل) يرتدي حلة (اسبور) فاتحة ، وشاربه مشذب في سطر مستقيم فوق شفته العليا . النظارة الزرقاء على عينيه . رغم أننا نقف في ركن يكاد أن يكون مظلماً ، الرجل ظهرت عليه الحيرة .. أمال رأسه واستمع إليها :

– شريف .. أنا قلت لا بد من ثلاثة أو أربعة محامين .. ماذا نفعل الآن

والأستاذ توفيق .. باعت لنا .. أل .. أل . الأستاذ ..

قالت الأستاذ ، كأنها تقول (الهلفوت) ، وقبل أن أدمدم بالغضب . نحتني سهير جانباً . وتقدمت هي . لتقول لها :

– نجوى هانم ، اليوم ، إذا حضر محامي الخصم سيطلب التأجيل للإطلاع

قال (شريف) وهو يهز رأسه . وقد تذكرت شخصية (عبد السلام النابلسى)

– خمسة محامين وشرفك يا نجوى هانم ملطوعون على الباب هنا من الصبح (فخري) عامل بهم مظاهرة ، بالتأكيد سيرعب بهم القاضي ..

قالت نجوى هانم ، وهي تتساند على ذراع (عبد السلام النابلسى) في إعياء مصطنع :

– كيف لا يأتي الأستاذ توفيق بنفسه .. أنا غلطانة ..

قلت : يا هانم . . .

فأشاحت بيدها المحملة بالأساور الذهب .. ولجأت إلى صدر (شريف) وقالت

– بلا هانم بلا زفت [وواصلت احتجاجها بموشح بلدي منتق] .. أنا أعطيت له شيك على بياض ، يكتب فيه المبلغ الذي يريده ، كيف يهزأ بي بهذه الصورة. هل يريد أن ينصر علي (فخري) .

لحقت بها سهير . وقالت لها بثبات :

– سبحان الله في أمرك يا مدام .. الأستاذ توفيق لم يقصر .. وأنا والأستاذ حسان [أشارت نحوي وكأنها تترافع أمام القاضي] كاد إصبعها أن يدلف في

عيني ، وقالت : من أفضل المحامين في المكتب [ثم واصلت إقناعها بصوت خافت]

رأيت نجوى هانم تستريح وتهدأ .. بينما قال المرافق لها :

– نجوى هانم لا تقلقي ، البلد ملآنه بالمحامين ، الجلسة القادمة سيكون هنا . نصف دستة محامين . .

رأيت نجوى هانم ، أمرأة من قاع المدينة ، صنعت بأيدي خبراء التجميل وبيوت الأزياء . عندما تكلمت سقط كل هذا الذواق وتكرمش التايير الفاخر الذي ترتديه ، لم يبق منها إلا الذراعان المكدسان بالأساور الذهبية، وأصابعها المرشقة بالخواتم الألماس .. ليست هذه هي بنت الباشا . إنها بنت الـ... »

وأثناء ترضيتها، كانت (سهير) تصطدم بصدري ، أو أمسك بذراعها حتى أنحيها و أتقدم لإقناعها ..

في النهاية . دخلنا القاعة ، وكما توقع الأستاذ توفيق ، تقدم المحامون عن طليقها (المعلم فخري) .. بالتأجيل .. وسحبها (شريف بك) إلى السيارة . وهي تتلفت نحونا وتبتسم ، لم يتمهل بها (شريف) حتى تعتذر ، أين قرأت اسم شريف هذا ، نعم انه بالملف ، هو ذلك (العاشق) الذي تسبب في طلاقها .. "

ونحن نغادر المحكمة . قلت لسهير ..

– ماذا كنت تقولين يا أستاذة سهير ؟

قالت – كنت أحاول إقناعها بأنك أفضل من الذي أحضرهم طليقها جميعاً ..

قلت وأنا أشعر بالفخر : لا ، أقصد موضوع الشقة ، التي تصلح مكتباً ومسكناً
توقفت سهير .. شملتني بنظرة عميقة مع ابتســـامة ذات معـــنى ، ومـــدت يدهـــا
وأمسكت بيدي ، حتى أتمهل ، ونحن نترل السلم العريض إلى الميدان .
وقالت : قصدك شقة محرم بك ؟!
قلت : نعم .. نعم .. قصدي شقة محرم بك !
اصطبغ وجهها بالخجل ، رأيت وجهاً جميلاً مشرقاً .. تساندت علـــى ذراعـــي وقالت :
– أوه .. يا أستاذ حسان . عندما يأتي النصيب . .
وانتظرت كلمتي التالية ..
وأخذت أبحث في عزيمتي عن الخطوة لتالية ، ونحن نتحسس خطواتنا ..
كانت عيناي في عينيها تنسجان اتفاقاً هادئاً . . .

****

لاحت لها ، محطة الموعد ، عبر شارع الكورنيش ومن بين السيارات التي كانت تمرق في مجري الشارع ، سقطت من المنظر العام للخلفية ، التي تجذب غير السكندريين ، تلك الميناء القديمة ، التي تمتد تحت قبضة تمثال سعد زغلول ، محصنـــــة بالبلوكـــات الحجرية البعيدة ، مساحة من الماء الذي يعكر صفوه تلاطم أمواج البحر ، لم تقع في وعيها تلك السفينة الكبيرة الراسية بالقرب من الطابية القديمة ، وبعض الفلائك التي تتناثر هنا وهناك .. كانت المحطة ، وحدها ، في بؤرة الشعور ، بنـــاء أزرق صغـــير يختفي ويظهر من خلف السيارات التي تتمهل أمام ضوء الإشارة الحمراء ، في ذلك المساء ، فقدت الخلفية البانورامية ، ذلك السحر التي تتضمنه ، لم تكـــن في حالـــة للتأمل وهي تهبط نحوها ..

ولم يكن بالها صافياً .. طالما استمتعت بذلك المنظر ، وهي تـــنزل ســـلالم المحكمـــة العريضة .. تستروح قليلاً بعد عناء العمل .. في هذه اللحظات ، كـــان الخـــوف يضغط على ذهنها ، يترك بقعاً من التوتر على المرئيات التي تراها مغلفة في ضبابية ، وقد تخلصت من نظاراتها الطبية ، ينساب الخوف بداخلها كما ينساب الزيت على سطح أملس ، يوقف انسيابه هذا القرار الجريء الذي جعلته يمر تحت أنفها ، دون أن تبد مقاومة تذكر ، يتراكم الخوف في داخلها ، يبعث الضجيج داخـــل رأســـها الذي اعتنت به بصفة خاصة ، في تلك التسريحة الحديثة التي تزيح عشرة أعوام من عمرها بعيداً عن الأعين الفاحصة .

استقبلت قاعدة التمثال ، ثم دارت بجانبه في الممشى الضيق ، خلفته ورائها .. لكنها كانت تسير في بطء متعمد ، كأنها تكلفت بإحصاء البلاطات التي يدق عليها كعب حذائها الأسود اللامع ..

كانت قد أسدلت ستاراً كثيفاً بينها وبين تلك القيود التي التزمت بهـــا طويـــلاً ..
فتركت على نفسها آثار قروح لا تندمل ..
" إمرأة ورجل .. "

أن تخفي إعجاباً طارئاً يبديه شخص ما ، نحوها ، لا يعد وأن يكون ، لقاء مسافرين تفرغه ذاكرتها مع بقايا قشر البرتقال في صندوق القمامة ، ولا ترى حرجاً مـــن أن تلهو ، بحديث صريح عن هذا الإعجاب ، قصير العمر ، الذي ترنح على حـــواف عمرها ، إذ لم يتغلغل إلى مركز الدائرة ، هذا أمر ، كانت تدفعه ، أمام المســـتمعين لتؤكد لهم – ولنفسها ، أنها لا زالت ، تعلو على تلك العواطف العابرة .. وهي لا تغفل لحظة ، منذ عدة أعوام ، أن الزمن يتسرب ، وأن الثقوب تزداد .. حتى باتت – أيامها تختفي اختفاء الماء على الرمال .. لم يتبق لها سوى الأشياء الغليظة ، ربمـــا لهذه الأسباب بالذات – جثمت على هذا الأمل بكل صدرها .. بســـطت كفيـــها حوله لتبقى هذا (الموعد) قبل أن يتسرب مختفياً من تلك الثقوب ، وحتى لا تترك أثراً في أخاديد النفس .. حافظت على يدها ممدودة في الفراغ ..
علاقتها به لا زالت تحبو وتتعثر ، عمر هذه العلاقة ، امتد منذ منتصف الصيـــف ..
حتى منتصف الشتاء ، إما أن توقع على صك لحامله .. ببصمة الجسد .. على فراش في شقة غريبة عنها .. لم تنتق قطع أثاثها .. ولا نسجت لوحة كنفاه على جدرانها ، أو القطيعة !

" أنت مفتوحة العينين .. مدركة للغرض .. ستحتويك الشقة الغريبة عدة ســـاعات ثم تلفظك في مساء مشحون ، أوله بالرغبة، ولا تدري شيئاً عن آخره ..
عليك أن تبدين معصوبة العينين ، كالمرأة التي تمسك بميزان العدالة في الساحة الـــتي شهدت نجاحك وإحباطك ، كانت المسافة بين النعم والـــلاء ، معتمـــة وضيقـــة والمسافة الآن – بين الرغبة والرفض شائكة ، عليها أن تجتازها بدون روب المحاماة .

بدون الجدية والصرامة على الوجه ، بدون النظارة التي انحشرت في حقيبتـــها بـــين الأقلام وأدوات التجميل ، ومفكرة العناوين ، وأرقام تليفونات العملاء ، والزملاء وبعض روشتات الأدوية ، وصورة لطفل ، لم يكن طفلها .. كان طفل الجارة ، التي تتركه أمه أحياناً في رعاية شقيقتها .. فتلهو معه ، تضمه ، مسروقة الروح ، وأمنيـــة تغوص في حناياها ، أن يكون لها يوماً طفل مثله ..

كانت الفرص تجئ وتتسرب ، كل فرصة تحمل في أحشائها فنائها .. عبرت العقـــد الثالث .. أغرقت نفسها في العمل .. قدمت ، بينها وبين نفسها ، بعض التنـــازلات في قبول هذا الشريك المنتظر ، كثيرون يلوحون معجبـــين بطلاقتـــها في المحـــاكم وباقتناصها للحقوق الضائعة .. ثم يختفون ، لا أحد عبر عن رغبة حقيقية ، في نصفه المفقود ، حتى وقفت على أعتاب الأربعين الصلدة ، في المكتب ، وفي ساحات العمل ينظرون إليها باحترام .. فرضته شخصيتها المتفردة .. يشيدون باحتشامها وحزمها ، ضاربة المثل للمرأة التي تأخذ حقوقها دون عقد مؤتمرات للشكوى ، كم من رجـــل هام بها ، أسبل عينيه وتمنى لو أنه التقى بها في صدر الشباب .

يطعنها بالسنوات التي مرت تباعاً .. ثم راح ينعى حظه العاثر ، في مرح أسوان .. ! ساعات الفخر والزهو تذوب ، عندما تعود إلى قميصها وسريرها ، ترسل ســـاعدها إلى آخر المخدة فلا يصطدم بشيء .. لا تستطيع كافة القضايا الـــتي كســـبتها أن تنسيها تلك المشاعر الفياضة التي تزلزل كيانها كامرأة ، كم تتمنى لحظتـــئذٍ ، إن لم تكن محامية ناجحة ، ولا حققت تفوقاً على عدد من الخصوم .. وكانت مجرد امرأة تحتويها أحضان هذا الشريك ، الذي توارت ملامحه ، وبهتت ، في ضبابية الأيـــام ، فصار شبحاً يستطيع أي – شكل – أن يملؤه ، لم يتبق من التنازلات إلا أن يـــهفو قلبها القنوع إليه .. رجل .. تنجب منه ذلك الطفل الذي تداعبه وتناغيه دائماً ، في وحدتها ..

عندما تنطفئ المصابيح ، وتسعى الرغبات المكبوتة .. يجلس فوق أوراقها .. يبـــول على كل القضايا الناجحة والخاسرة .. ويصنع من أوراق المســتندات ومســودات المذكرات ، طائرات ورقية ، يرسلها من شرفة المنـــزل .. لتطير في الهواء ..

(رجل .. وامرأة ..)

كانت قناعتها به ، قد أتت مترنحة .. فهو قد غازلها دون معرفة سابقة .. فغفرت له جرأته .. ولم يخطر ببالها أن تطلق عليه (اللقب الذي جال بخاطرهـــا) - وقـــح - عندما اعتقد أنها زوجة رجل مسافر يعرفه ، فكشف عن (أنا) سفلي منحطة ، رأتها من منظور إبداعي .

ومن غرائب المؤلفين .. كان قد أصدر كتابـــه الثـــالث .. ويكتـــب مقـــالات في إصدارات فالتة من ضغوط القماقم .. كان يحمل ليســـانس الحقـــوق ، ولكنـــه لا يتحدث لغتها .. فآثرت أن لا تقدم نفسها له ، تركته مع - البدن الذي التقى به .. في اللقاء التالي ، أهداها آخر إصداراته - رواية - جرأته في تناول أحداثها ووقائعها خدشت حياؤها .. جعلتها المشاهد - تغلقها عدة مرات بعنف ، وهي تقرؤها ، تزفر إما ضيقاً أو رعباً ، ثم أخفتها بعيداً عن متناول أولاد شقيقتها المراهقين ..

لم تناقشه في موضوعها الذي لم تتمكن من القبض عليه ، وكيـــف اســـتباح تلـــك الخصوصيات التي عصفت بذهنها مراراً ، وفي لقاء ثالث .. من خلال نشاط ثقـــافي دعاها إليه ، لم يكن مستقراً في بؤرة اهتمامها ، كانت قد انطلقت إلى هذا اللقـــاء ، بحثاً عن سكين تذبح بها الملل أو تقطع هذه العلاقة .. التي كانت من الوهن ، أنهـــا صارت تشغل جُل وقتها ، حتى لا تخمد زبالتها .. أهداها كتاباً قديماً له .. وكتب لها إهداء رقيق .. " إلى تلك الحسناء الوقورة .. معلومة الرسم - مجهولـــة الاســـم ، والعنوان ، إلى من تعيش داخلي منذ اللقاء الأول .. لا تريد الجلـــوس ولا تريـــد الانصراف "

وجدت في هذا الكتاب القديم ما تعشقه من قصص .. عندما أبدت إعجابها بـه ، أنكر ذلك الإعجاب ، أطاح به في استهزاء ، واستنكر ذوقها ، فاجأها بأنه يتمنى لو يستطيع جمع وحرق النسخ التي طبعت من هذا الكتاب .. كتابه .. وسألها :
– كيف تعجبين بأخطاء البدايات وسذاجاتها الأخلاقية ؟

كانت تعيش في رومانسيتها الحالمة .. وكان هو ، قد صار له عالمه المليء بالأخاديد . ومن هذا الاختلاف – بدأ الحوار بينهما – صنعت من (الزُبالة) الواهنة حريقاً من العواطف . كانا يقفان على طرفي نقيض .. هو بوهيمي ، وهي منظمة . هو يحب الفوضى والحديث في عديد من المواضيع بدون تمهيد ، وهي تتمهل عند المقدمات ، وتسلسل الأفكار .

هو يجذبها إلى عالمه ، ليس لإقناعها بمعتقداته .. بل لاحتوائها في أحضانه – وهي عندما وجدت نفسها بين ذراعيه ، كفت عن ارسال دفوعها ، استمتعت بقبلاته المختلسة ، لا تقاوم الأولى وقد تبادر بالهروب من التالية الشيطانية .. تسد ثغرة إثر أخرى ، في سبيل كسب قضية الخلاف بينهما .. أفاقت على الموقع و الموعد الجريء . استخدم نفس الألفاظ القاطعة ، التي استخدمها في روايته الأخيرة ..

كان يعرف أنها (محامية) لها مكانتها .. وأنها لم تتزوج بعد ، لكنه لم يكن يفاتحها في الزواج ، واصل الدق على بابها الخلفي ، مبدياً كثيراً من إعجابه بها كامرأة . همس بما لم تسمعه أذنيها في مجال عملها الوقور – فأجلت مفاتحته في منطوق الحكم قبل الإطلاع على الحيثيات .. اكتفت بأنها ، قد تأكدت بأنه غير مرتبط بأخرى .. لم تدرك أنه ضد الارتباط .. كان ما يشغلها حقاً .. تلك الأيام التي انصرمت من العام الأخير .. صار كر هذه الأيام يصيبها بالرعب .. فلا تجرؤ على الانسحاب من القضية .. برغم أن كل الأوراق كانت تؤكد ضعف دفوعها ، إلا أنها كانت تتمسك بالأمل الأخير .. في عدالة المحكمة .. وأن يعترف (المتهم) بكل أخطاؤه

فجأة أمام القضاء . وفي نهاية الجلسة الأخيرة .. يطلب الارتباط المقدس وينحني أمام الأخلاق .

(امرأة ورجل ..)

هكذا أرادت – أن يكونا بين قوسين – مدفوعة بصورة قدرية – ثمة شئ أقوى منها ومن رغبتها الدفينة ، يجعلها تتلكأ في التـــزين .. تتلكأ في الوصول .. تنــزل مـــن السيارة خلف محطة الرمل .. تسعى إليه على مهل .. كان يمكن أن تجعل الموعـــد في أحد المشارب القريبة .. ولكنها لم تحر سؤالاً .. عندما حدد محطة الأتوبيـــس أمـــام تمثال سعد زغلول .. ربما طاف بذهنها – المكان ، والموعد ، والغرض ، يعيدونها إلى أيام المراهقة الأولى – وذلك التوتر الشيق ، وإنها إذا وافقت ، كان من أجل ذلـــك الطفل الذي يستقر في صدرها .. وهي كشخصية لها كثير من المعـــارف ، لم تفكـــر كيف ستتأبط ذراعه ، من محطة الأتوبيس .. وقد ينتظرا تاكسياً يحملهما إلى ..

كانت لا تريد أن تتخيل تلك (الشقة) الغامضة في عمارة قديمة .. عندما يشملهما البواب الأسمر بتلك النظرة الخبيرة ، وهما يغلقان باب المصعد ، ويصعـــدان علـــى درجات السلم الذي لابد وأن يكون مظلماً .. ورطباً ..

قال لها في بساطة قاطعة كحد السكين :

– حصلت على مفتاح شقة في الإبراهيمية .. أريد أن نكون وحدنـــا .. لعلـــك لا تخافين مني ، فـــأنا مثلك أؤمن بالحب .. !

كانت في تاييرها الكحلي وبلوزتها الفضية اللامعة ، وجسمها الملفوف الممتلـــئ دون إسراف ، تبدو كامرأة في قمة النضج .. ورغم حلول المساء .. فقـــد توقفـــت .. ووضعت على عينيها نظارتها الزرقاء .. نظرت في ساعة يدها الرقيقة ، فلـــم تتبـــين عقاربها بدون النظارة الطبية .. إلا أن الموعد كان قد انقضى من ربع ســـاعة علـــى الأقل .. هذا الموعد بالذات تخلفت في الحضور إليه مبكرة .. في المواعيد الأخـــرى

كانت تسبقه وتنتظره .. تراه يأتي إليها متمهلاً .. يمشي مختالاً .. واضعاً يديه في جيوب بنطلونه .. كانت أحياناً تتأمل كفيه حتى تتأكد أن ليس بهما عيباً خلقياً .. وقد يتحدث معها ، مستخدماً ، أكتافه وذقنه في معظم الإشارات ، سيجارته .. ترسل دخانها من جانب الفم ، إلى عينه اليمنى التي يزرها ولا يكلف نفسه رفع السيجارة ليبعد الدخان المتصاعد بطيئاً منها إلى عينيه في حالة عدم شفط دخانها .

كانت بالفعل قد أحبته في بداية الشتاء .. ومع أول نوة على المدينة .. كانت وقتها تختلج من الحب وليس من البرد .. مع أن علاقتهما بدأت في منتصف الصيف .

وقفت بين زحام من ركاب الأتوبيسات .. كان هو على الطور المقابل .. هناك . وفي عينيها صورته تملأ حدقتيها .. رأته يقف تحت سقف المحطة المواجهة ، قطعت السيارات اتصال الرؤية .. فرأته يقف على طرف المحطة .. يديه في جيوبه يرسل البصر نحو محطة الرمل .. قطعت السيارات اتصال الرؤية .. فإذا به قد أشعل سيجارة ، استخدم يداً واحدة للتدخين .. واليد الأخرى في جيب بنطلون حلته الداكنة .. كانت تراه في حلته ورباط العنق الأحمر .. أنه قد استعد للاحتفال العظيم .. شمت رائحة عطره .. خالته للحظة – يجلس بجوارها على مقعد مذهب ، محاط بالأضواء .. وهي في ثوب الزفاف .. ذيل الثوب الطويل يملأ المكان .. لا يترك للراقصة والأصدقاء إلا مساحة قليلة من صالة الفرح ..

(حصلت على مفتاح شقة في الإبراهيمية) لماذا لزمت الصمت يا أستاذة ؟ . أهو التعقل والاستيعاب الذي يصيب المرأة عند الأربعين ؟ أم أخرستك المفاجأة ؟ لحظتها ابتسم بطرف فمه .. ابتسامته الواثقة من التسليم .. كانت بك رغبة أن تتعلقي بعنقه ، وتقبلينه ، حتى يعود فمه كما كان .. متخلصاً من تلك الابتسامة الشيطانية. التي غار مغزاها بداخلك .. " أريد أن نكون وحدنا " .

ألتقي بك مرتين في مشارب الكورنيش الشتوية التي يصفر فيها الريح .. صناعة حملة ليسانسات الحقوق هو الكلام . أما هو ، فقد صار كاتباً - يوجز - وعلى القارئ استخراج المعاني ، هو يريدك معه في فراش واحد .. أليس هذا ما تتمنينه دائماً ، وازداد تحرقك إليه في السنوات الأخيرة .

رفعت إليه عيناك مبتهجة .. أكنت تتصنعين ؟ .. أم تخفين لهفتك ؟ .. ثم أرسلت تحذيراً خائباً .. بأن جنودك بدون قائد ماهر يأخذ بيدهم ، وإنهم لم يخوضوا منذ الطفولة حرباً حقيقية .. وأنك تخشين سذاجتهم ، بما يعني أن كل ما تخافين عليه ، لا يزيد عن قبضة اليد .. أسلمتيه طرف خيطك .. ربط فيه نساء أوربا برايات الشرق ، وخلط بين الشرف والحياء في منظومة الأخلاق القديمة .. وجعلتيه يستدعي - عربة الروبابيكيا ليطلب منك تخليص صالونك من كل الكراكيب التي تزحمه وكنت تحملقين في وجهه كالبلهاء .. كأنك تشاهدين السحر ، يكاد وضوحه أن يغشي عينيك عن رؤية ما حولك ..

دعيه يقف ويتحرك قلقاً ، ويشعل سيجارة أخرى .. ينتظر .. يتلفت يمنة ويسرة ويسير في اتجاه المقهى الذي يلتقي فيه بأصحابه .. ثم يعود بدافع الأمل في حضورك .. لعل المفتاح المعدني لباب الشقة الآن في جيب بنطلونه ، ولعل إحدى يديه تعبث به الآن ، ولعله يشعر ببرودته ووحدته .

في اللحظات التالية .. هبت ريح قوية .. عبرت الميناء الشرقية .. احتضنت الناس بقوة ، أخرجت (الأستاذة) من حقيبة يدها إيشارب وضعته على رأسها .. عقدته تحت ذقنها ، لتحفظ هذه التسريحة الشبابية لصباح الغد .. ستفاجئ بها العاملين في المكتب ، وقد تدور في ساحة أحد المحاكم .. استبدلت النظارة الشمسية بالطبية .. تراجعت .. عادت .. سارت من حيث أتت ، تدفعها ريح النوة في ظهرها .. اتحدت

معها .. تركت نفسها ليد البرد .. تتحسس جسمها الفائر .. وعندما اختفت خلف قاعدة التمثال .. تلفتت من فوق كتفها .

كان لا يزال واقفاً .. ينفث دخان سيجارته بيد والأخرى في جيب البنطلون ،،،،،



٥

* الشجرة والفأس

* شارع العقصة

* توحة المنصورية

* شهوة الموقف المتحرك

الشجـــرة

والفـــأس..

.. مات والدي قبل جدي .. خشي الجد إذا ما رحل تنبثق أطماع أعمامي حائلاً دون وصول أرث والدي .. لي ولأخوتي ؟

جمع العائلة . ووقف بحزم ضد الرغبات الخفية للعم الكبير (عبد الحافظ) الذي يعتبر نفسه «خليفة الجد» وكبير العائلة من بعده ، وأصر الجد) على تسليمي وأخوتي نصيباً من الأرض ، بيعاوشراء» بعقود ممـــهورة ببصمـــات وتوقيعـــات الأعمام الخمسة ، والعمات الثلاث .. !

لكن عمي الكبير . كان لا يخفى تبرمه . وكان يختلق العراقيل في طريـــق حقنـــا ليتعثر.ولا يصل إلينا في المدة المتبقية في حياة عين جدي .. !

قال له : إن توزيع الأرض في حياتك يا والدنا ، فأل سيئ .

وكان الجميع يوافقونه ، كالجوقة التي تردد أناشيده .

ويتململ جدي .. هو الوحيد الذي يتصدى له ..

فيقول عمنا(عبد الحافظ)بصوت ناعم لانعهده فيه .- أولاد أخينا المرحوم عبد الصمد . في مقلة العين ، الولدان والبنتان . هم أولادي استرح يا أبي ، ولا تشغل نفسك بهذه الأمور ، وأنت الرجل المريض ، هم يعيشون بيننا . ونحن نرعاهم .. !

يقول جدي بآخر أنفاسه القوية

-يا عبد الحافظ . لا تتعب قلبي . أنا أعرفك . من ربى خير من الذي اشترى ! سأقابل وجه كريم ، لا تجعلني في آخرتي مخزياً مهيض الجناح .. إن ما سأتركه لكم ليس بالقليل . ! أعطوا نصيب المرحوم عبد الصمد. لأبنائه بالكامل "

يقول العم وهو يكظم حنقه في عناد وتصلب ..

- أرح نفسك ، الله يبارك لنا في عمرك ، حتى تدفننا جميعاً بيديك !

لكن الجد لم يهمد على فراشه . إلا بعد أن جعلهم ، يبصمون - عماتٍ وأعماما . على العقود . بتحديد مالي ولأخوتي ، نظر في العقود.واستراحت أساريره وهو يدرك بأنه تغلب على عناد العم الكبير ، وأبطل مقاومته ، وأساليبه المخاتلة

****

وحصلت مع أخوتي وأختي على أربعة فدادين من أرض الصعيد . فكان نصيبي (فدانا) تسلمته قطعتين . إحداهما طرح نهر . بمساحة ثمانية قراريط . كان النهر إذا فاض يغمرها ولا ينحسر عنها إلا بانحساره .. والقطعة الثانية .كانت تبعد عن القطعة الأولى بكيلو مترين ، شرق النجع ، مساحتها ستة عشر قيراطاً ، أو هكذا قيست ، وقبلت ، وكانت بها شجرة كافور ضخمة ، عتيقة ، تظلل

مساحة كبيرة من الأرض . تحتها . وحولها . أقاموا مرابط لحيوانات العائلة
/عدد من الجاموس والعجول،والحمير – كركائب،وبعض النعاج .. وكان ظل
الشجرة المتسع ملاذاً للجميع . وقت الظهيرة . لقضاء القيلولة والراحة ، إنها
المكان الذي كان يستريح فيه الجد . وصار ملاذاً للعائلة . بنسائها وأولادها .
يتناولون فيه طعامهم،ويحفظون فيه محاصيلهم،حتى يتم نقلها إلى صوامع البيوت
في النجع ، لم يعترض أحد من أخوتي على أنصبتهم المتناثرة،أو تقسيمها كما
أتفق . آثروا الصمت،واقتنعوا بأقوال عمنا الكبير الذي قال :

" إننا ننفذ رغبة المرحوم جدكم يا أولاد المرحوم .. ولكنكم ستبقون دائماً في أحضاننا . أموالنا هي أموالكم . وأموالكم هي أموالنا .. "

كان جدي قد منحنا العقود .. ومات ..

ولم أتبين معنى – أموالكم هي أموالنا ، إلا بعد الأربعين . وصعود العم الكبير لمكانة الجد . كبيراً للعائلة – بيده الحل والربط،ولا راد لمشيئته .!

كلمة عمي(عبد الحافظ) صارت تمشي على الرقاب كحد السكين ، حتى تبقي للعائلة وحدتها التي تجابه أخطار الصعيد،وبدونها لا يمكن العيش في خضم الأخطار والخصومات،عندما تأتي – قوة العائلة ووحدتها – بالأمن لأفرادها .
خاصةً في مواجهة ضعف يد (الحكومة) التي لا تصل إلى النجوع النائية ...

*** *** ***

تزوجت شقيقتاي من ولدي عمنا عبد الحافظ ، وتزوج شقيقاي من اثنتين من بناته . وهو الذي يقتني ثلاث زوجات ، ينجبن جميعاً بلا توقف ..!

وكنت أعلم أن هذه الزيجات . خطط لها العم الكبير . ولم يعترض أحد . وكنت أحتفظ لاخوتي . بصفتي كبيرهم ، بعقود إرثهم التي أرغم على التوقيع عليها . فأوعز لهم بأن يطلبوا العقود مني ، حصلوا عليها بعد محاولة فاشلة . في إقناعهم بالعدول . وقام العم الكبير . بتمزيقها – حين قدمت له ليشاهدها ، وكتب عقوداً جديدة – بأنه اشترى منهم الأرض ودفع ثمنها أمام شهوده حاولت مقاومته . وتحريض أخوتي ، حتى لا يسقطوا في بئر أطماعه فيبتلعهم ولكنهم لم يطيعوني . كانوا يخشون غضب كبير العائلة .. ورأيتهم قانعين بما هم فيه . وبالحياة في كنفه . قلت للأختين البنات :

– أخشى إذا ما فرغ من وضع يده على إرثكما ، أن يوعز بتطليقكما ، ماذا أنتما فاعلتان حينذاك ..؟

قالت الأخت الكبرى : لقد أنجبت ولداً .. وفي هذا أماني ..

ولاذت الصغرى بالصمت الحائر ..

وحاولت . بواسطة صاحبي (رسلان) أن أثير الأخوين . فالدق على الحديد وهو ساخن أفضل . قبل أن تغيب حقوقهم في طي النسيان ..

لكنهما أرسلا إليّ بما يعني (أن الدنيا زائلة بما عليها) وينصحني أحدهم (أرح نفسك . ولا تتعبنا معك

** ** **

لم يكف (العم) عني طويلاً . ما كاد يبتلع لقميات اخوتي . حتى استدار نحوي . يتلمض على نصيبي .. أوعز إلى من يحدثني بالزواج من ابنته (عائشة) .

وعائشة ابنة عمي ليست بالدميمة ، بل هي على جانب كبير من الجمـــال ، في الظروف العادية قد لا يقبل زواجها من (فقير) مثلي : وأعرف أنـــه يتطلـــع لزواجها من (الحسيني) ابن خالها . وريث معظم أراضي عائلة إحدى زوجاته . وكنت أعرف أن المقابل ، سيكون تمزيق عقدي وكتابة عقد جديد ، بتســـليمه رقبتي . ثم أعمل في أرضه مقابل إطعامي والإنفاق عليّ وعلى أولادي منـــها .. ولكن ما لم يعلمه – الكبير – أنني كنت قد وقعت في غرام (أمينة) ابنة عبـــد الراضي خلف . الوافد على النجع ، والذي ينظر إليه ، كبار النجع من عـــلٍ . وعائلته ليست كبيرة إذ تحتمي في ظل عائلة (الدرادرة) ، مؤسســـها شـــقيق جدي الكبير . وما لم يعلمه الكبير . أنني . كنت أتوق لزراعة أرضي بنفســـي . وأن تكون شورتي من رأسي ، أمسك بيدي دفة حياتي ، منفلتاً من تحكم (عمي) في مصيري وربما ، كان (الكبير) يقاوم ، رغبتي الأخيرة ، بكل السبل ، حـــتى ولو ضحى بزهرة جميلة ، ودفعها للزواج مني .. [لكن لا تفشى رغبتي في أفراد العائلة .]

** ** **

قال لي صاحبي رسلان . الذي سلم إرثه لشقيقه الأكبر يديره . ويتولى شـــئونه فلم يشعر بما يبعثه الامتلاك من شعور جياش . وإحساس بالمســـئولية .. ذلـــك الإحساس الذي نبت بداخلي منذ ، صار لي الفدان ، أرهبه ، وأعشقه ، وأتحـــدى أخطاراً . لا طاقة لي بها ..!

– يا صاحبي عباس ، الابن الأكبر يبغي أن يكون الوريث الوحيد ، ولأنك الابن الأكبر . فأنت تختلق التحديات مع العم الأكبر .. وهو رأس العائلة الذي أجبر بناته وأولاده على الزواج من أخواتك .. وأجبر (عائشة) على أن تنتظر لتطرق بابها . وأنت تعلم . من هي عائشة . التي حُجبت عن أزقة النجع منذ أصبحت في العاشرة.لفرط جمالها ..!

ووقعت في حيرة .. حبي لأمينة ، وتطلعي إلى الاستقلال بحياتي ، والاستمتاع بأن يكون صوتي من رأسي ، سقطت بين جدران ملساء مرتفعة . تكتنفني مشاعر انتظار الأخطار التي تحيط بالفريسة التي وقعت في الفخ ..

كنت قد عزمت على بناء بيت خاص بي . طوبة . طوبة . وأكون أنا رأساً لعائلة جديدة . ولم أشأ الإقرار بما لطمني به من حقائق . قلت :

– يا صاحبي رسلان . لقد أعطانا العم أرضاً لا يمكن زراعتها . وفداني مزقه . قطعة منه تزرع مرة واحدة . والأخرى . بها الشجرة القديمة . ولم يكف أحدهم عن استخدامها . كل ما في الأمر أنهم أطلقوا عليها شجرة عباس .. وهي في الواقع (مسمار جحا) الذي وضعني فيه (الكبير) . وعليّ أن أختار .. بين معاداة الجميع . أو أختنق بهم ...!

. لم يعقب (رسلان) على شكايتي . قذف حجراً وقال :

– أنا أميل إلى إلقاء همومي على الأرض وليحملها من يحملها ، أما أنت فإني أراك مغرماً بحمل الهموم .. حمل يا أخي وحط على رأسك . ؟

كان موقف رسلان غير المشجع . يعبر عن موقف الجميع مني . يــرون أن في تحدي الكبير لا طائل وراءه إلا الخسران ، وفي محاولاتي التحريضية تفتيت لكيـــان العائلة القوي . . .

وكنت . بقدر رهبتي منه – أواصل التوغل فيه .. !

** ** **

الشجرة اللعينة . في أرضي ، هي التي تصلني بهم هؤلاء الخانعين لسطوة عمــي الكبير . لماذا لا أجتثها . وهذا حق من حقوقي . أو يعطونني أرضــاً أخـــرى . بعيدة لا تجعلني أرى أحداً من هذه العائلة التي تقف ضدي ..

لكن ضخامة هذه الشجرة الغليظة . وشعابها الضاربة في الأرض .. وأغصانهـــا الممتدة حولها كمظلة كبيرة ، فهي بقدر ما تبعث ليأس في التخلص منها بسهولة .. كانت تصدني عما أفكر فيه .. قد تختلط مشاعري بالشــــفقة علـــى هـــذه الشجرة الضخمة . رباط خفي ممتد بين المزارع والشجر ، إذا ما كان قد نشأ في ظلها.ومع ذلك . فقد ابتعت من السوق بلطة حادة ثقيلة ، وبكل ما أحملـــه ضد سطوة (العم) وأطماعه ، عزمت على إجتثاث الشجرة.ولـــو اســـتغرق قطعها حولاً كاملاً ..!

وأفصحت برغبتي لأمينة . فانزعجت . ثم قالت في لين ..

– وهل تستطيع يا عباس ؟ يا قلبك الحجر .. !

وكانت تقصد . أن في ظل هذه الشجرة الوارفة ، كان لقاؤنا ، وفي ظلها تعلم المشي أطفال العائلة ، وأنا ..

ومع ذلك . اندفعت ، ورفعت البلطة ، ونزلت بها بقوة على جذعها .. فـــإذا بصرخة ألم تصدر من الجذع .. تمالكت بجانبها .. أضمد هذا الجرح ..

والدموع تتجمع في عيني .. رفعتني (أمينة) عن الأرض . وقالت :

– إذا قطعت الشجرة . قطعت صلتي بك !

– ما صلتك أنت . والشجرة . وما بين أهلي من عناد ؟

قالت أمينة : وهل يزوجني أبي لك – دون حضور عمك الكبير وموافقته ..

– وما الـــعمل .. إنه يتطلع إلى أرضي ، ولن يوافق على زواجي من خـــارج العائلة أو داخلها، إلا إذا ذَهبت إليه الأرض . بعقد جديد ..

صمتت قليلاً . ثم قالت في عزم ..

– اذهب إلى عمك .. وقدم له الأرض . وتحرر .: وأنا في انتظارك (خذوهـم فقراء يغنيهم الله ..)

وكبرت أمينة أمامي ، صارت شجرة أخرى كبيرة ولها ظلال ..

صحبت عقدي الملعون معي . وذهبت إلى العم الكبير . سوف أعطيه العقد يمزقه ثم اطلب الزواج من أمينة ، فلن أتزوج إلامن يهواها قلبي، في هذا العقل الحر . ستكون حريتي..

** ** **

طلبت حديثا خاصا مع العم . وكان قد اعتادني متمرداً عليه . عندما أدخلوني . ملت أقبل طرف ثوبه ، هذه هي الطاعة . وسوف أقبل قدميه .. كنـت أعمل جاهداً حتى لأتتسرب مني شجاعتي، قبل مفاتحته بالزواج من أمينة التي

قد يعتقد أني فضلتها عن ابنته الغالية ، فوجئت بأن العم المتغطـــرس يكلمـــني بالرحمة والود . وطلب لي الطعام والشراب.قبل أن أفتح فمي بأي حديث . انـــه يظن أن عقلي عاد إلى رأسي ..

وعندما قلت له : يا عمي .. أنا أود الزواج ..

رفع يده في وجهي ... مات الكلام على شفتي . داعب شاربه الكث وقال

– الزواج نصف الدين يا ابن المرحوم الغالي .. لكن قبل أن تستكمل كلامـــك اعلم يا ابن أخي أن الزواج قسمة . لا يستطيع العبد أن يتحداها. مكتوب لنا ، على من نتكشف . كنا في انتظارك شهوراً ، لكن عائشة ابنتي خطبت للحسيني ابن خالتها – وأنت تعلم . كم هو ميسور . سيجعلها على رأس حريمه ..

كدت أقفز من فوق الدكة ، أقبل كل جزء من وجهه المغضن ، ولكني سيطرت على نفسي .

لابد وأن أجعله يبدو أنه – فاعل الذنب بي ، وأنني أطيعه وهو الذي يتراجع عن كلمته الحديدية . بقيت صامتاً . مطرقاً . حتى أن العم ربت على ظهري وكرر

– إنما القسمة والنصيب . تكون في فمك وتقسم لغيرك .

قلت : حسناً يا عمي . أنت كبيرنا وأنا إذا طلعت أو نزلت ، ولذلك إذاً إسمـــح لي في الزواج من أمينة ابنة عبد الراضي خلاف .

حدجني بنظرة ثاقبة . ثم ابتسم بجانب فمه ساخراً وقال :

– أمينة ابنة عبد الراضي خلاف ، هل تريد أن تضع فقراً على فقـــر ، مـــاذا

ستصنع به بعد ذلك ؟ !

قلت متصنعاً الانكسار : هي طاقتي . وهي فقيرة مثلي ..

لكنه أخذ يطيب خاطري قائلاً

– البنت جميلة وزينة . على بركة الله ..

... وتزوجت من أمينة وقد وضع عمي . يده في يد عبد الراضي خلاف فكاد الرجل . يتيه فخراً ..!

** ** **

كنت لا أزال أفكر في قطع الشجرة للاستفادة بالأرض في الزراعة أبديت رغبتي مراراً لصاحبي رسلان ليمد لي يد العون ، فلم يمانع وكانت حجتي أن أرض العم الكبير فيها اتساع للعائلة التي تستخدم [illegible] في ظل شجرتي . وأرضهم مليئة بالأشجار .. ويمكن أن يبنوا أخصاصاً تقيهم الهجير بها . حتى [أمينة] كفت عن تعلقها بالشجرة ، فلم تعترض على قطعها ، وكلما عزمت على بدء العمل . أرجأته المشاغل .

وعندما أنجبت (أحمد) وراح يتعلم المشي في ظلالها . يحبو ويتساند على جذعها . يتعرف على أفراد العائلة وعيالهم ، والغرباء الذين يلوذون بها أجلت موعد قطعها إلى وقت ملائم ..

ومن حين لآخر . أشحذ البلطة وأجعلها صالحة للعمل .. ثم أنشغل أو أتشاغل ... أتحدث عن القطع .. ولا أجرؤ على الفعل .. ؟

** ** **

مات قبطان باشا .. قائد الأسطول العثماني الذي غضب عليه السلطان فقام بتسليم السفن التي تحت أمرته إلى " محمد على " .. وبعدها قـــام الإنجلـــيز بتحطيم سفن ذلك الأسطول لصالح السلطان .. دون أن يعلم أن خشـــب الأسطول سيسحب بعد المعركة ويجفف ويصنع منه النجـــارون كرويتـــات عربي، وأسرة عزوبي، وكنب اسطامبولي،ومقاعد أسيوطي .. وتبـــاع هـــذه الأثاثات في شارع العقصة ..! لكن في أول شارع العقصة بباكوس من ناحية شارع أبي قير،كان يوجد المطعم الشعبي الخيري .. والحمام الشعبي الخـــيري .. المطعم يوزع الطعام والشوربة الساخنة ومرتين في الأسبوع يوزع اللحـــم مجاناً،على الفقراء والمعوزين . والحمام الشعبي،كان يمنح المســـاكين قطعـــة صابون فنيك ، ليستحموا بها .. مع الماء الساخن،وكانوا يدعكون الجربانين بالمراهم والسبرتو .. والوسخين،المقشفين،يعطونهم ليفة . يخصصونهـــا لهـــم بصفة دائمة . وكان ماء الحمام يغلى دوماً بفعل النار المشتعلة تحت قـــدور الفول المدمس في الخرابة الواقعة خلفه .. النار كانت من القمامـــة،والحـــي قمامته كثيرة لا تنفد !

وكثير من الفقراء رواد الحمام الشعبي والمطعم الشـــعبي .. اشـــتروا مـــن الأثاثات .كرويته،أو سريراً يرفع أجسادهم – عندما تبرد بفعل النوم – عـــن الأرض .. ولم يعلم أحد منهم – أن هذا الخشب الجيد الذي يقاوم السوس

والأكلان – من بقايا الأسطول الذي تحطم في معركة "نوارين".

* * *

ومات محمد بك أبو الذهب ، الذي خامر ووالس مع السلطان العثماني .
ضد سيده وأستاذه على بك الكبير – شيخ البلد في مصر – عندما حاول أن يستقل بالمحروسة ويعتمد على المصريين، ويسك النقود باسمه، ولا يدعو المشايخ على المنابر (للسلطان) الذي لا يتحدث اللغة العربية !
مات، دون أن يعلم، أن طابور الخونة من الموالسين، كان طويلاً وممتداً .. ومنهم البكوات والأفنديه الذين كانوا يرتادون شارع العقصة لشراء الأثاث القديم الذي يحمل مهارة الصانع الدقيق .. إذ أن دكاكين الأثاث القديمة تكتظ بمخلفات القصور التي كان يتخلى عنها الخواجات – بعد أن يستخدموها في بدء حياتهم .. عندما ينزلون من السفن – يا رب كما خلقتني – وهم في أشد حالات الضنك . يا دوب بذلة قديمة وبرنيطة وفي جيوبهم حظوظهم مع جوابات التوصية – بأنهم سيكونون أوفياء للاحتلال، وبأنهم فاهمون الفولة . وبأنهم نار على الوطنيين وأبناء البلد . وبأن مصيرهم يرتبط حتماً بمصير تاج الأسد المرعب . فيستقبلون، كخبراء، ويرسلون إلى القومسيون الطبي . يكشف على قلوبهم، ويفحصهم فحصاً دقيقاً، وعندما يجد بالفعل أن صدورهم خاوية على عروشها. يضع لهم بين الضلوع، قلوباً صناعية تحنو على الحيوانات والحشرات، وتقسو على البني آدمين .. وتلك القلوب تدار ، ببطاريات تشحن خارج الحدود .. أو في المركز الشرقي من الإمبراطورية في الهند .. !
وسريعاً ما يصير الخواجة الكحيان، من الناس الأفاضل، يقعد في صف واحد

مع الباشوات، ويجلس تحت أقدامه البكوات .. والناس في كل مكان يضربون له تعظيم سلام .. ويستمر عصر أعواد القصب بشدة أكثر، حتى تصير حطباً قابلاً للاشتعال ..!

وبعدها – يبيع الأثاث العزوبى القديم – ويشترى (الموبيليا) الجديـــدة .. ويحمل الصعايدة تجار الكراكيب الذين يدورون في شوارع – الإفرنـــج – ينادون بيكيا روبابيكيا ... أثاث الخواجات القديم إلى رصيـــف "شـــارع العقصة" وهناك يقوم الصنايعية بتلميعه ودهنه. وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح وإعادة عرضه، وبيعه بأسعار في متناول دخل الأفنديه، الذين يتسلمون أعمالهم في المصالح الحكومية العريقة . والتي كان يترأس أقسامها وإدارتها المفتشـــون الأجانب .. والجميع يضعون فوق رؤوسهم الطرابيش، لكن الأفنديه، يتزمتون ويعقدون أربطة العنق أربع أخماس اليوم، ولا يعـــيرون أي مـــن المواطنـــين الشعبيين، اهتمامهم، إذ لم يعرفوا الأصول، ولم يذكروا أسماءهم، مقرونة، بالألقاب وكلمات التفخيم ..!

ويصرون أن يطأطيء الجميع (البصلة) لهم – وأن يحملوهم فوق الـــرءوس .. مثلهم مثل (السادة) الذي حملوهم على كواهلهم طويلاً ولم يسألوهم عن هويتهم .. !!

* * *

وما لم يعلمه المعلم "منعم" منوّر الصالات، ومتعهد أفراح الأجـــانب، وســـرادق

عزاء أبناء البلد . والذي كان يحلم أن يكون مواطنـاً عالميـاً أو ألمانيـا ..!
وعندما فشل .. ركز جهوده بأن يصير كاتباً بمكتب صحة رمل إسـكندرية ليحصل على فرصة عمره . ويكتب أبناء الحي الذين يولدون - باسمه. ويصير (أباً) للمولود وعماً لأخوته - وتتاح له الفرص الذهبية - إذا ما ولد أحد الأطفال سفاحاً. من الخواجة الإنجليزي والعشيقة اليهودية التي تبيع الهوى . قام وكتب له شهادة ميلاد مخصوصة . مقابل مزرعة في أرض سموحه وعـدد من أكياس الكرملة . كما أنه - وهو أب وعم لأولاد الرمل - فانه إذا مـا أقسم بأيمان المسلمين - انه شاهد عرس الخواجه على الخواجايه . بعينه التي سيأكلها الدود .. انكتم طويلو الألسنه .. وما لم يكـن في الحسـبان . أن يموت الخواجه.وترث المومس غير الفاضلة.ثروة الخواجة وقصوره وضياعـه المنهوبة .. واعتقد المعلم منعم متوّر الصالات .. انه بذلـك سـيكون لـه الحلوان .. الذي لا يقل عن ... لكنه أخذ الزمبة.التي طلعت مـن يافوخـه . كما أخذ اللعنات بعدد أنفاس الأولاد الذي كتبهم على اسمه ففقدوا آباءهم الحقيقيين ... !!
وهو عندما خسر (الجلد) تعلق (بالسَقط) .. إذ نشن على المطعم الخيري والحمام الخيري في شارع العقصة . واشتراهما بتراب الفلوس .. ورفع لافتة كبيرة على المطعم والحمام .. " لا شئ مجاني يا أولاد الوسخة ، اتفوو عليكم يا سفلة يا أولاد الأفاعي "

ولأن (الخرابة) تقع في الشارع الخلفي _ فقد لاذ بها الفقراء والمعوزون .
ولم يتمكن المعلم "منعم _" أن يقف على ناصية شارع العقصة _ ويعلن . انتهاء الفقراء في الحتة ويرفع قائمة الأسعار السياحية على المطعم والحمام ..

* * * * *

وما لم يعلمه الجاسوس (كوهين) الذي أ مضى بضع سنوات متصلعكـــاً _ مستغلاً ، الشكل واللغة . مع الأدباء والشعراء والصحافيين الغاضبين .
على المقاهي التي تجمعهم هنا وهناك ...
يسايرهم ويسبر أغوارهم . يصادقونه على أنه يبحث عن فرصـــة لنشـــر إنتاجه الأدبي، ودائخٍ مثلهم دوخة البلجيك أمام الألمان _ ما لم يعلمه هـــذا الجاسوس . أن الناس الفقراء الجوعى في أول شارع العقصة من ناحية شارع أبي قير . صاروا أكثر جوعاً ...
وان الناس الجربانين الوسخين صاروا أكثر هرشـــاً لأجســـادهم وتقطيعـــاً لجلودهم !!
وأن الجوعى والجربانين ملأوا الأرصفة _ وعندما استحال عليهم اســـتئجار مسكنٍ مناسبٍ لم يعد في استطاعتهم . التعامل مع تجار الأثـــاث القديـــم أو الجديد ....!
فلم يجد باعة الأثاث القديم إلا تحمل مساومات وفصال زوجات الموظفـــين . للحصول على تخفيضات هائلة . "معظمهـــا وهمـــي" . لشـــراء مخلفـــات

الخواجات الذين فتح الله عليهم من أوسع الأبواب . وبعد أن كانوا يأتون ويطلبون وظائف ويضعون على رأسهم الطربوش ويحملون الألقاب البلدية .
صاروا يقترضون من بنوكنا _ ثم يشترون بها المطاعم والحمامات _ فقـــد أثبت المعلمُ منعمٌ منوّر الصالات . إنها وسيلة سهلة للربح ..
وعندما قام الخواجات بنزح البئر في قنواتهم .. نضبت في الأيدي الأموال ..
وتكدست الأثاثات القديمة والجديدة فوق الأرصفة ... ولم يكن أمام الفقراء إلا أن يرفعوا أيديهم إلى السماء ... يستمطرون اللعنات على رأس من أغلق المطعم المجاني ... والحمام المجاني ... وألغى المجانية التي كانت تسد الرمق ... وتنظف الأبدان من الوسخ .
والفقراء _ ومعهم قطاع من الأفندية _ يبدأون موشح اللعنات ... بمقطـــع جماعي ..
" اتفوو عليك يا خسيس ... "
ثم يواصلون النواح بالمقطوعة حتى القرار ....
****

توحـــة

المنصورية.

تحت الدست المملوء حتى الحافه بالمياه الحليبية الساخنه،والتي تغمــــر الملابـس القديمة المتسخة . كان الوابور البريموس يوش في جانب الحوش ، بأقصى مـــا يمكن أن تحصل منه (فتحية) من نار،بعد أن كبسته حتى ملأت بطنه بالهواء ، وسلكت (الفونيه) بالإبرة الرفيعة الصلب .

وأخذت تغسل الهدوم بهمة ، وتدندن بأغاني ريف المنصورة . شاء لأغاني ريف المنصورة أن تتردد في حارة (الغزالي) المتفرعة من شارع (الكســـائي) مـــن ضواحي الأسكندرية،من توحة المنصورية .. وهي منهمكة في العمل .

وبساعدها البض ، رفعت خصلة من الشعر الخيلي ، التي تمردت علـــى قمطـة المدورة ، وبيدها المسلوته من طشت الغسيل ملغمطة برغاوي الصابون (الدبة) .. جمعت ساقيها العاريتين – نافضة ذيل الثوب الباتسته المبلول من المياه التـــي طرطشت أثناء تقريط الملابس بكل قوة ، وضربها في ماء الطشت الســـاخن الذي يفيض بالرغاوي .

وعادت نفس الخصلة تفلت ، وتنزل ، على الوجه البيضاوى الذى تلألأ حين تفصد بحبات العرق الدقيقة .. فصار لامعاً .. وحبيبات العرق تتجمع وتسرى قاطعة المسافة من الجبهة مارة بالوجنة الوردية .. لتهبط على العنق الطويل .. وتستقر فوق النهد النافر : فى الجسم الغيطانى وهى مشغولة فى عملها . بذلك الحماس المتوهج .". فى حوش بيتنا .."

قامت فتحية منطورة لما سمعت الوابور يشحر .. وكأنها قصدت أن تفعل شيئين دفعة واحدة .. تناولت العصا الخيزران التى تقلب بها الغسيل .. وفى نفس الوقت قرفصت أمام الوابور ومالت إليه بصدرها حتى صار وجهها فى مستواه وهى تكبسه وبيدها الأخرى قبضت على جسمه الساخن مع زوره .. حتى لا يتحرك تحت دست الغسيل .. كان ظهرها مجسماً نحوى، يرسل حركاتها النشطة فى إتجاهى _ (وأنا أذاكر درس التاريخ للإعدادية) ثم وقفت أمام الدست تصطاد الملابس بطرف العصا ..

قالت عنها أمى : أنها بنت فلاحة وأهلها ناس على قدر حالهم ..!

وقال عنها والدى : فتحية بنت عفية ، وصحتها تساعدها (لم يشأ أن يقول أنها حلوة) وكنت أريد أن أضيف أنها أجمل من بنات الظاهريه .. ولايوجد فى (باكوس) من ينافسها . أدركت أمى إعجاب والدى بها ، فقالت (ربنا يستر على عبيده ..بيقولوا أنها طفشت مع حسنى العطار ..وبيقولوا أنها أخفت عنه بأنها سبق لها الزواج .. من يدرى .. استغفر الله العظيم .. لدينا ولايا) لوى والدى فمه .. وهو يزجر أمى .. التى كانت نحيفة كالمرضى وشخط فيها بصوته الجهورى . . .

(بيقولوا .. بيقولوا .. كل سكان الحوش فرحانين بها .. لأنهـــا بنــت عفيــة وبتساعدهم) لكن أمي كعادتها ، إذا ما ثار أبي ، انسحبت وهي تلوذ بـــآخر دفعاتها .. بلوية البوز الناشف .. وقالت ::
– إسأل حسني العطار زوجها ، قل له .. لماذاتهجر زوجتك ياحسني ، منذ يوم الدخلة قد يصرح لك كرجل مثله ، عن السبب !

وكان يحلو لى _ مراقبه فتحيه المنصوريه زوجه حسني العطار ..(الساكنه فـــي احدى غرف بيتنا) .. وانا أرفع كتاب التاريخ أمام وجهي .. وقـــد جلســت على المقعد الواطئ في حوش المنزل مسنداً ظهري الى جدار الغرفة التي تركت لي وحدي حتى أتفرغ للمذاكرة .. والاستعداد للإمتحان .. وخاصة منـــذ أن لمحت أمي بأن حسني العطار – البائع الجوال – منذ أتى بفتحية الى غرفته فـــي الحو ش ، قد هجر فراشها ، لا أدري هل اهتم أبي بسماع ما قالته أمي وهـــو يتلو بعض آيات القرآن الكريم ليستغفر الله لها .. بالتأكيد لم يســـأل حســـني العطار .. فهذا تدخل لامبرر له .. وقد مضى شهر .. أكثر من شهر ، وهـــذا القول ، ينخر في رأسي ؟ يوقظ كمون مشاعر أوثقها بحبـــال غليظـــة ، مـــن الواجبات والعادات والتحذيرات ، وفتحية .. وهي تغسل هذة الأكـــوام مـــن الملابس كانت تغني أغاني لا تصلح إلا لبراح الحقول .. بصوت أنثوى تصبه في داخلي ، دفعت بالعصا ماعلق بطرفها .. كانت بيجامتي ، المخططـــة ، أخضـــر وأصفر ، ثم أخرجت جلباب والدى المخطط خطوطـــاً زرقـــاء متجـــاورة .. ومنفصلة .. كذلك .. ألقت بثوب أمي في الطشت وهي واقفة ..

كانت قد انتهت من كومة ملابس (أم شوق) زوجة فرغلى ، عامل النسيج .. فهى اليوم تخبز، وأمى ترحل لها العجين فوق السطوح ..

ولما جاء .. حسنى العطار .. بجسده العملاق، وقدميه المفرطحتين، وثوبه الأزرق القصير، رأيت الثوب نظيفاً .. وقدميه فى حذاء كاوتش .. كان كعادته يلاغى الجيران ومن يقابلهم، صانعاً ضجة من السلامات والسؤال عن الأحوال وتحت ذقنه حليقة، ووجهه الذى لفحته الشمس فى لون النحاس الأحمر، ورأيت (فتحية) وقد دخلت الى الحجرة وواربت الباب ، تجذب ذيل ثوبها المبلول على فخذيها العاريتين (وقفت ألهث خلف باب غرفتى الموارب لكى أسمع ماذا يحدث هناك عندما يسحبها حسنى العطار إلى حجرتها، سمعته يقول لها بصوته الأجش .. الذى يقع بين الجد والهزل ، (ايه يا توحة هو كل يوم غسيل) سلت توحة يديها من مياه الطشت .. كانتا غارقتين برغاوى الصابون مسحتها فى ثوبها تحت ثدييها النافرين .. وأمالت على البابور البريمس وفتحت المحبس ، خرج الهواء بصوته الرفيع (فس .. س .. س) وهمدت النار فى الطربوش تحت الدست، وقامت منتورة، ودلفت خلف زوجها . وأغلقت الباب خلفها .. طال إنتظارى .. ساعة .. أكثر من ساعة .. وأنا لا أفهم ولا بنداً واحداً من اتفاقية لندن ، لتحجيم طموحات محمد على ....

****

. . ضغط آماله المتشعبة في جملة واحدة ، ومن خلال التوتر المتواصل بداخله ، شرع في مخاطبة (الرجل) الذي سيصبح عماً له – والذي شاءت أقداره أن يمسك بمقود حياته القادمة ، فهو الذي لا يزال يمسك بمقود حياة من أحبها وأرادها زوجةً له .

كان يتصبب وجداً ، ولكنه ألقى بأمنيته بين يديه ، إذ تدفق يقول :

" يشرفني أن أتقدم طالباً القرب من ابنتكم (ثريا) لتنير لي حياتي ..هيَ هيَ .. هيَ" وانكتم .. !

ثم استرد أنفاسه وتوقع ابتسامة من (الرجل) تنفلت من تحت الشارب الرصاصي المربع ، تشجعه أن يسترسل ، حتى تلتحم بمطلبه – نادرة – تلطف الجو كاشفاً عن روحه المرحة . عندما ربط بين اسم – ثريا – والنور الذي سيغمر حياته .

انتظر إجابة الرجل ، لكن الرجل الذي قام بتربية ثريا ، حتى صارت تدر دخلاً لم يرتق إلى دور (العم) ، كان يبحث في عمق جيوب جلبابه عن شيء خاص به . . بدا منهمكاً ، ومنصرفاً إليه بكل حواسه ، وظهر الاهتمام بالبحث عن هذا الشيء في الجيب الغويط ، شديداً وجاداً ، انتقل إلى عبوس في وجهه إذ اجتاح وجهه المغضن تعبيران – أحدهما – لموظف أرشيف يمر ببداية العقد السادس بصعوبة والآخر لدوره الجديد ، وقد ألقت الظروف بأحدهم ، يتوسل إليه ويرجوه أن يكون عماً له . فبدت نظرات عينيه التائهتين المعلقتان في سقف الشقة الضيقة ، تحديداً بسقف الصالون القديم الذي كان مذهباً .. ثم عاد إلى أصله من خشب البلوط . كانت عيون طالب القرب ، ترقب الرجل في رجاء ، بينما (الرجل) مط جزءه المدكوك إلى أعلى ، ليتيح لذراعه الطليقة ، حرية البحث في جيب الجلباب البيتي المريح ، بذلك الاهتمام الزائد ، واليد الأخرى ، قبضت

على تلابيب حجر الجلباب ورفعته قليلاً عن بطنه المكور وقد لقم شفتــه الســفلي الســبنية ، لحظات كانت طويلة على طالب القرب ، ثم رفت على وجـــه الرجـــل سحابة يمكن إدخالها قسراً تحت بند الارتياح . إذ عثر (عم العروس) على ضالته في جيبه الغويط ، بينما كانت السيدة ، أم طالب القرب ، وخاله النحيـــل الهـــادئ . يتابعان لهفة إبنهما على رد طلبه ، مجبور الخاطر . !

أخـــرج (عم العروس) منديله الأبيض المكوي ذا الحواف الزرقـــاء – الرجـــل لا يزال محافظاً على قديمه ، ولا يستعمل المناديل الورقية التي أتى بها الانفتاح ، والـــتي كانت تترك آثارها على وجه (طالب القرب) العرقان . فتافيت بيضاء متناثرة على شعر الذقن وعلى جبهته . فبدا كأنه جاء مباشرة من أمام ماكينات مصنع النســـيج الذي يعمل به .

دس (العم) أرنبة أنفه المكورة بداخل المنديل ، والحضور يتابعونه بما فيهم زوجتـــه التي كانت تضيق بتلكؤ زوجها في الرد على (الجدع) .

أغلق " محفوظ أفندي " وهو في بيته ، أشبه بفلاح يمتلك خمسة فدادين ، مسار الهواء إلى أنفه وفتح فمه ، التقط نفساً عميقاً ثم أطلق زمارة ، صارخـــة ، متقطعـــة ، وفي نفس الوقت كان يتهيأ لعطسة لم تحضر مكتملة ، وفي الوقت نفسه يلقـــي بنظـــرة مـــتأملة داخل المنديل على المخلفات ، الجميع كانوا يرقبون أرنبـــة أنفـــه الـــتي اصـــطبغت باللـــون القاني . وكأنه يستمتع بالأنظار معلقة على باب فمـــه الـــذي كان يتلمض كمن فرغ من ابتلاع لقمة كبيرة .

كانت أم (الأفندي) وخاله ، يشعران بالقلق . بينما (العريس) والعـــروس الـــتي إستعدت عند الباب ، وقد أعدت أكواب الشاي ، وتزينت وتعطـــرت – كـــانت تقف في انتظار الموافقة (الشكلية) .. لم يكن القلق يعتورهـــا . إذ أنهـــا طمـــأنت (خميس) في لقائهما الأخير ، بأن الموقف قد أجيز بلا عوائق من زوجة عمـــها الـــتي

بيدها الحل والربط والسلطة الفعلية في البيت ولكن من الضروري ، وضع (العم) في الإعتبار . والمرور بالشكليات التي تدخل في بند (الأصول) .. ذلك لأنه الرجل الذي أشرف على تربيتها في بيته ، منذ وفاة والديها إثر الحادث الأليم ، وتركت له طفلة صغيرة . وبرغم ضعف شخصيته أمام زوجه إلا أنه بقي يقاوم حتى تسلمت عملاً ..

أخيراً تكلم العم .. فأنصت له الجميع . بينما (العريس) كان يفتش في الدفعات التي وصلته . عن شئ يخص المناسبة ، والطلب المحدد . فلم يعثر على أثر من ذلك . كان (العم) ولابد أن يتقبل الحضور أي حديث يتفوه به على أنه " الحكمة " الخالصة ، قد انهمك في دفع مجموعة من الموضوعات الحياتية .. يحوم بها ، يعلو ويهبط ، كان يلقيها كأنه يغترف من برميل له لون واحد . وكان له القدرة على التنفس دون التوقف عند الفصلات أو النقاط . إذ أنه وهو سيد الجلسة الآن ، يمر بوضع لا يتكرر كثيراً في حياته . أخذ يستعرض الموضوعات الأثيرة التي يحفظها كأناشيد الطفولة . وما يتعرض له شخصياً – كموظف عمومي ، في أرشيف قديم . شاهد الهوايل في [البدروم] الذي يزدحم بالملفات والسجلات والأوراق ، وقد نسيته [المصلحة] في تطورها باستخدام الأجهزة الحديثة .
لقد بدأ الحديث منذ قيام الثورة .. وكيف تعرف على ضباط من الأحرار عندما ارتدوا الملابس المدنية وعملوا بالإدارة – كانوا يجهلون العمل وتطوع بتدريب أحدهم – وعندما تخطى حرب أكتوبر ، أخذ يتساءل : كيف رأى صغاراً يصعدون حتى شوشة المصلحة . وكيف رأى الباطل يرتدي ثوب الحق ويسير بدون رجلين .ثم يرد على نفسه (عندما كانت العكاكيز تتلاشى فجأة . تاركة من يعرجون بلا مساند . كانوا يقفزون كالكنغر) – يضحك خال العريس مجاملة . فينتش (محفوظ أفندي) ويتوغل في التشعبيات عن الوساطات . والفرص

التي أتيحت له ليثرى . ثم يقول في صوت حزين : لكني أعرف (الله) ويـــدي لم تلمس الحرام و .. نسي العريس الإجابة المحددة وهو يشاهد مسلسل حيـــاة عـــم الـــعروسة . الزاخر بالتشويق . والعروس بدأت تتوتر ، والشاي الذي كان ساخناً تلاشى من فوقه البخار ، واندمج الخال مستغرقاً بكل حواسه في الفصول التي يلقيها هذا الرجل المهم وهو يلضم موضوعاً في آخر ببراعة . لكن أم (خميـــس) كـــانت تتبادل النظرات مع زوجة عم العروس . متسائلة . متى يجيب سي محفوظ على طلب ابنها . فانقلبت زوجة الرجل المهم إليه . توجه له النظرات النارية . ليكـــف عـــن مهاتراته التي (فلق دماغها بها) يضيف ويحذف منها ، حتى باتت لا تصدق منـــها كلمة واحدة . وتعتبرها . فض مجالس ، وتهيأت لمقاطعته ، سمعته يقول [لكن المسألة ترتكز على الضمير] رأت أن في هذا المقطع ، النهاية . فعضت على شفتها السفلي ، ولوت بوزها ، لكن سي محفوظ أخذ يتناول (الضمير) من خلال عـــدد مـــن الـــمشاهد التي حدثت له شخصياً . وكيف كان متاحـــاً للعبـــد لله . أن يصبـــح ملـــيونيراً . إذا ما غفي مرة واحدة . وأغمـــض عينيـــه . ثم راح يصـــف أهميـــة المـــستندات القديمة التي في حوزته . وكيف أن مســـتنداً واحـــداً مـــن تـــلك المستندات التي تحت يده ، يجعل بعض الناس يتحصلون من الحكومة علـــى ملايـــين الجنيهات . إنها مستندات ملكية وعقود . ومديونية لم تلفظ أنفاسها بعد . (ويمكـــن أن تدب فيها الروح) .. !

تلاحقت أنفاس زوجته . وهي تشاهد البنت [ثريا] . واقفة ترتعد عند البـــاب . تنتظر إشارة الدخول . عادت وعضت له شفتها ، وخاطبته بدون صوت ، وحاولت معه بلغة العيون ، وهي ملتزمة بالابتسام في وجهه أمام الغرباء ، ولا تريد أن تـــعض نفسها وتقوم بغسله بموشح من موشحاتها [كان لا يـــزال يحكـــي عـــن لصـــوص الأراضي] عندما انتفضت الزوجة واقفة ، وأخذت تسعل ســـعالاً متواصـــلاً ، ثم

انتهزت أول فرصة يبتلع فيها ريقه . لتقطع استرساله . ولتنهى سعالها . واندفعت قبالته . تحول بينه وبين الضيوف الذي استأثر بهم . جعلته خلفها وهي تستدير بجسمها العريض . تسألهم مفتعلة مجموعة من الضحكات الجوفاء .

– يقطع البرد وسنينه . أخذنا الكلام يا جماعة ، حاكم محفوظ أفندي . كلامه لا يشبع منه أبداً ، تشربوا قهوة . لدينا بن محوج . عمايل يدي . أم انكم تشربوا الشاي وبعده نعمل قهوة ..

كان محفوظ أفندي قد دفع يده في مقعدها يزيحها من أمامه حتى يتمكن من رؤية ضيوفه . إلتفتت إليه في حدة دون أن تستدير ، وحاولت أن تجعلها لفته عادية . كان محفوظ أفندي ضائقاً من حجبه خلفها ، وقد امتعض لوقف شهوة حديثه . قالت له بصوت يتضمن مستوى من التهديد :

– تشرب قهوة يا سي محفوظ .

هز محفوظ رأسه متعجلاً إزاحتها من أمامه . حتى يمكنه أن يري العريس وخاله ، الذي ظهر عليهما الاهتمام بما يقوله . وليواصل حكايته مع (الصنايعية) عندما قام ببناء بيته في الحي الشعبي ..

قالت له الزوجة وهى تدفعه في صدره :

– لكنك شربت قهوة يا سي محفوظ كفى .. كفى .. كفى يا خويا قلبك يوجعك .. صحتك ..

لكن سي محفوظ لم يفهم معنى (كفى) ، إذ لم يكن منتبهاً لما تقوله زوجته له ، وكان يحصر همه في ترتيب حكاياته التي انثالت في ذهنه . وما كاد نصف وجه خال العريس يظهر له من خلف جسد زوجته الضخم ، حتى قال [فوتكم في الكلام ..]

لكن الزوجة التي توترت لم تمنحه هذه الفرصة . سريعاً ما تحركت وسدت عليه الاتصال . مال برأسه . فمالت هي عليه وهمست في أذنه بعبارات قصيرة محددة وهو يحاول إزاحتها من أمامه . قال في ضيق وبصوت احتجاجي :

– موافق يا فردوس .. موافق يا ستي . انزاحي بقي من قدامي ..

كان سي محفوظ يتعجل إزاحتها ليواصل حديثه الذي بدأه .. لكن الموافقة . جعلت الموقف ينفجر ويتحول إلى مسار آخر ..

أم العريس أطلقت زغرودة . وبدأ العريس في تقبل التهاني من خاله الذي إحتضنه . وصاحت الزوجة في ثريا : تعالي يا ثريا – أدخلي على عريسك يا ابنتي .

فدخلت ثريا بالشاي . الصينية بين يديها ، وترفل في ثوب جديد ، (ضعي الصينية وفرقي الشاي يا ثريا .. آخرة البنت .. بيت عريسها) وتهيأ الخال لقراءة الفاتحة والدخول في – الذي أوله شرط آخره نور – وتقبلت ثريا على وجنتيها تهاني أم عريسها ، بقبلات تطرقع بها تحت أذنيها ..

ومحفوظ الذي انتهز هذه – الوقفة – أخرج من صندوق سجائره لفافة ، وأشعلها ثم حصل على ذراع الخال .. جذبه نحوه فأجلسه بجانبه . ومال عليه ليتكلم " عن هذا البيت الذي بناه طوبة طوبة من الحلال .."

وبرغم ضجيج المناسبة ، كان يواصل الكلام عن كفاحه .. وكيف صار له اسم كصاحب عقار عند الحكومة .

لكن لا أحد – حتى الخال – كان منتبهاً لما يقول ..

المؤلف

عبد الفتاح أحمد مرسى

- حاصل على ليسانس الآداب من جامعة الأسكندرية ودبلوم عام من كلية التربية.
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر.
- عضو عامل بهيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالأسكندرية
- عضو مؤسس فى (كتاب فاروس)

ـ مقيم بالأسكندرية ـ سيدى بشر ـ ت : ٥٤٨٨١٥٢ - ٢٠٣

كتب صدرت للمؤلف

* رواية على حافة النهار ـ الثقافة الجديدة ١٩٩٣
* رواية الدحديرة ١٩٩٥
* رواية المحسوس والملموس ـ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
* رواية المقطوع والموصول ـ كتاب فاروس ١٩٩٨

كتب تحت الطبع

- زعربانه ـ رواية ـ مجازة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- أحزان الصباح الجميل ـ رواية ـ كتاب راقودة
- "الفن .. فى موكب الوعى" دراسة ـ مطبوعات الوفاء..